كتاب الهلال
عصفور من الشرق
تأليف
توفيق الحكيم
طبعة خاصة مزدانة بالرسوم
سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال
٧٧

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٧٧ ــ محرم ١٣٧٧ ــ أغسطس ١٩٥٧

No. 77 — August 1957

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ــ مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ــ سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ــ السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صاغا ــ الامريكتين ٥ر٥ دولارات ــ سائر أنحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

عصفور من الشرق

تأليف
توفيق الحكيم

طبعة خاصة مزدانة بالرسوم

دار الهلال

الاهــداء

الى

حاميتي الطاهرة

السّيدة زينب

مقدمة المؤلف

ظهر كتاب « عصفور من الشرق » منذ نحو عشرين عاما . وما من شك ان كثيرا من الاحداث قد وقعت فى العالم خلال تلك الأعوام ، وان كثيرا من الآراء قد تغيرت أو استحدثت . فينبغى ألا يغيب عن ذهن القارىء اليوم أن الصورة التى تعكسها هذه القصة ـ التى ربما كانت أول قصة مصرية تناولت فى ذلك العهد الأفكار والاتجاهات العالمية ـ انما هى صورة العالم بشرقه وغربه فى السنوات التى تلت الحرب الكبرى الأولى مباشرة . فى ذلك الوقت كانت الدنيا تضطرب بأفكار جديدة ، كما كانت تتصادم فيها الاتجاهات المختلفة والعقائد والتقاليد . وكانت أفكار أوروبا تنتقل بسرعة الى الشرق القديم . كما كان الشرق القديم يملأ رأس أوروبا بصور غامضة أحيانا وبمثل روحية أحيانا أخرى . كما كانت التجربة الاشتراكية فى مرحلتها الغامضة أيضا فلم تسفر بعد عن نتائجها ، ولم تستطع أن تدخل الاطمئنان التام حتى على قلب ذلك العامل المقيم فى الغرب

كانت الدنيا مؤرجحة على أشدها بين المادية والمثالية . أما اليوم فان كثيرا من تلك الأفكار قد اتضح ، وكثيرا من

التجارب قد تحقق ، وكثيرا من الاتجاهات قداستقر ، وان كان العالم لم يستقر بعد ولم يهدأ

الى أى حد أستطيع أنا أو يستطيع قارىء اليوم أن يقر الآراء والاتجاهات التى يمثلها أشخاص هذه القصة ؟

هذا ما لا أستطيع أنا شخصيا الاجابة عنه .

ذلك انى اليوم لست طرفا فى الموضوع . وليكن مفهوما أن أشخاص القصة فى ذلك العهد هم وحدهم المسئولون عن آرائهم تبعا لظروف العالم التى كانت وقتئذ محيطة بهم

ولكن هذا لا يمنعنى من القول ان أهم تلك الآراء والاتجاهات لم يزل الحكم عليه معلقا . لأن يومه لم يات بعد . فالصراع بين المادية والمثالية لم ينته فى هذا العصر أيضا . ولسنا ندرى الى أى حد تستطيع المادية أن تحقق وحدها سعادة البشرية ؟ وهل المادية الاشتراكية الحديثة تنوى حقا أن تجمد على المبدأ المادى أو انها قد تعدله وتضم اليه المثالية الروحية ؟

ومن يدرى أيضا ؟ ربما استطاعت المادية الجديدة أن تنتصر وحدها وبوسائلها وأن تنفع البشرية وأن تبتكر نوعا من المثالية أو الروحية ينبع من صميم مبادئها ولاعلاقة له بالمثالية أو الروحية القديمة ؟!

وقد تستطيع المثالية أو الروحية القديمة أن تتجدد وأن تساير العصور الحديثة وان تفتح لها مرة أخرى آفاقا جديدة بوسائل جديدة .

كل هذا جائز

ولا أحب هنا أن أتنبأ بشىء . وان كان هذا الكتاب قد

سبق أن تنبأ بأمر وتحققت بالفعل نبوءته : فقـد جاء فى ختام الفصل الثامن هذه العبارة على لسان أحـد أشخاص القصة : « ... انى أتنبأ لك ، منذ الآن ، بوقوع نوع من الحروب الصليبية بين الماركسية والفاشـــية الخ » ... ووقعت بالفعل الحرب بين روسيا الماركسية وألمانيا الفاشية بعد نشر هذه العبارة بنحو ثلاث أو أربع سنوات !.. بل وقد وصفها بالفعل بعض الساسـة فى تلك البـلاد بأنها « حرب صليبية » !!!

لا أريد فى هذه المقدمة الوجيزة تنبؤات

ولكنى أكتفى بالقول ان الانسانية كثيرة التقليب والتغيير للمبادىء ، والتعديل والتحوير فى الاتجاهات .

لأن تلك هى طبيعة التطور البشرى .

انه لا يجمد على شىء

توفيق الحكيم



توفيق الحكيم

فى الطريق

الفصل الأول

مطر غزير ، قد الجأ النـــاس الى مظلات المشـــارب والحوانيت، والى الحيطان وأفاريز البيوت، ومداخل المترو .. ولم يبق فى ميدان « الكوميدى فرانسيز » غير مياه تتدفق من الميازيب ، وسيارات تخوض فى شبه عباب

آدمى واحد ثبت لهذا المطر ، وجعل يسير الهوينا ، غير حافل بشىء ، عيناه الواسعتان تتأملان نافورة الميدان، وهى زاخرة بالماء ، وفمه ذو الشفاه العريضة يلوك شيئا كالبلح ، ويلفظ شيئا كالنواة ، ويده اليمنى كالرسول الأمين ــ من جيبه الى فمه ــ تواتيه بالمدد فى غير انقطاع

هذا الآدمى فتى نحيـــل الجسم ، أســود الثياب ، على راسه قبعة سوداء عريضة الاطار ، فى قمتها فجوة غائرة ، كطبق الحساء ، قد امتلأت بماء المطر ! ..

وفرغ الفتى من تأمل النافورة ، فغادرها الى جانب آخر من الميدان ، يقوم فيـــه تمثال الشاعر « دى موسيـــه » وهو يستوحى عروس الشعر . فوقف الفتى ينظر اليه ــ وقد نقش على قاعدته : « لا شىء يجعلنا عظماء غير الم عظيم ! » ثم تطلع الى وجه الشـــاعر ، فألفى قطرات المطر تتســـاقط من عينيه كالعبرات ، فتحـــرك قلبه ، وسكت فمه !.. ثم همس مرددا كالمخاطب نفسه :

ــ لا شىء يجعلنا عظماء غير الم عظيم !.. نعم !..

ومرت فى رأس الفتى صــور من ماضى بعيــد ... ثم همس :

ــ حتى هنا أيضا يعرفون هذا ؟!..

وغرق فى التفكير ، وغرقت قبعته فى الماء ، حتى فاض فسال على وجهه . واذا صوت خلف ظهره يصيح به :

ــ أراهن بمائة فرنك ، أن لا مخلوق يقف هكذا امام هذا التمثال الا أنت ...

فاستدار الفتى سريعا :

ــ اندريه ؟!..

ــ قبل كل كلام ، انج بى وبنفسك من هذا المطر، ليس هذا وقت النظر الى التماثيل ! ..

ــ بل هذا وقته !.. تأمل يا اندريه !.. هذه الدموع فى عينى الشاعر !..

ــ لو لم يكن هذا الشاعر من رخام ، لولى الساعة هاربا، هو وعروسه ، الى أقرب قهوة ، وتركاك وحــدك ، وسط هذه المياه !..

ولم ينتظر الفرنسى جوابا من صاحبه ، بل جذبه الى مظلة قهوة « الريجانس » القريبة ، ثم نظر فى وجهه فوجد فمه يتحرك :

ــ عجبا ! ماذا فى فمك ؟..

فلم يجب الفتى . ولفظ من فمه نواة ، وقعت فى الماء الجارى الى « البلاليع » فصاح به أندريه :

ــ تأكل بلحا ؟!..

ــ نعم ، وفى شوارع باريس !..

ــ آه أيها العصفور القادم من الشرق !..

ــ فى مصر نسميه « عجوة » هذا النوع من البلح ..

انى اتخيل نفسى الآن فى ميدان المسجد بحى السيدة زينب! واتخيل هذه النافورة .. ذلك « السبيل » بنوافذه ذات القضبان النحاسية ..

ـ كفى تخيلا ! تعال .. لقد سكن المطر ..

ـ الى أين ؟..

فلم يجب أندريه ... وأخذ ينظر الى ملابس الفتى، ويتامله ، من قبعته السوداء ، ومعطفه الاسود ، ورباط عنقه الاسود ، الى حذائه الاسود ، ثم قال :

ـ عظيم جدا ..

ـ ما هو العظيم جدا ؟!..

ـ انك الآن خير من يصلح للذهاب ..

ـ الى فاتنتى الجميلة ؟..

ـ بل الى المدافن .. هلم معى ، لتشييع جنـــازة زوج بنت مدام شارل !.. ان عليك « طقم » حداد كامل .. لكانى بك دائما ، على أتم استعداد لمثل هذه الطلبات !.. انه ليسرنى أن أصحب مثلك الى هذه النزهة القصيرة !..

ـ النزهة ؟!

قالها الفتى وهو ينظر الى صاحبه شزرا ، ولكن صاحبه تجاهل النظرة ، وجذبه من يده وقال :

ـ تعال نؤدى معا هذا الواجب ..

ـ نحو من ؟...

ـ نحو الفقيد المرحوم زوج بنت مدام شارل ! ..

ـ ومن هى أولا مدام شارل ؟..

ـ هى والدة أحد زملائى فى المصنع

ـ وما ذنبى ؟! ..

ـ ذنبك انك صديقى !.. فلتتحمل ما أتحمـــل ...

لاشيء يثقل على نفسى ، مثل المشى صامتا خلف عـربات الموتى !.. سنتحدث على الاقل معا فى شئوننا ، بل فى شئونك أنت .. انت .. انى أعدك وعدا صادقا بالحديث طول الوقت ، عن فاتنتك ذات الانف ، الذى تقول انه ــ فى نظرك ــ المثل الاعلى للأنف الجميل .. قلب فى رأسك كل الصور والاوضاع ، التى كنت قد تخيلتها للجمال ! ..

ــ نعم ، نعم ! .. لقد كنت أعتبر الجمالَ ...

وانطلق الفتى يتكلم متحمسا .. ولم يفطن الى «أندريه» وقد قاده من ذراعه ، ونزل به الى احدى محطات المترو ، وابتاع له تذكرة فى الدرجة الثانية ، وأركبه قطارا مرق بهما فى جوف الارض مروق لســـــان « محسن » بذلك الحديث اللذيذ . وابتسم أندريه ، آخر الامر فى خبث ، ابتسامة من يقول فى نفسه : « ان معى الآن مفتاح قياده ، فلألوحن له « بها » يتبعنى صاغرا ، بغير أن يشعر ، الى أقاصى الارض !.. »

□

دقت نواقيس كنيسة «سان جرمان» احتفالا باستقبال الجثمان ، ولم تكن الجنازة قد وصلت بعد ولم يكن بباب الكنيسة أحد غير « محسن » ، فقد تركه « أندريه » عند الباب ، وذهب يشترى مظلة يتقيان بها المطر أثناء السير فى الطـريق من الكنيســة الى المقبرة ، وأبطـأ أندريه على صديقه ، وبدت طلائع الجنازة ، واشتد دق النواقيس .. ثم فتح باب الكنيسة على مصراعيه ، واقتربت عربة الموتى، تتهادى حاملة التابوت ثاويا تحت باقات الزهر ، وخلفها المشيعون تحت مظلاتهم ، ووقفت العربة ، وحمل التابوت الى داخل الكنيسة ، ومرت أفواج المشيعين بمحسن ، فى ملابسه السوداء الكاملة ، فانحنوا له حاسبين أنه من أهل

الميت الاقربين ! .. هنا ادرك الفتى حرج موقفه ، فأسرع واندس فى فوج الداخلين ، قبل أن تقع عليه أعين أهل الميت الحقيقيين ، والناس تنحنى له فيظنوا بشأنه الظنون

دخل محسن الكنيسة ، ولم يكن قد دخل كنيسة قط، ولا حضر صلاة ميت من أموات النصارى ، ولاراى مايجرى فيها من المراسيم ، ولا ما يتبع من الطقوس ـ فأحس برهبة ، وخيل اليه أنه باجتيازه العتبة قد ترك الارض ، وارتقى الى جو آخر ، له عبيره ، وله نوره !.. هنا أيضا عين الخشوع وعين الشعور ، الذى كان يهز نفسه كلمادخل فى القاهرة مسجد السيدة زينب !.. ايضا عين السكون ! وعين الظلام فى الاركان ، وعين النور الضئيل الهائم كالارواح فى جو المكان !.. ان بيت الله هو بيت الله فى كل مكان وكل زمان !..

وضع التابوت فى الصدر ، واضيئت حوله الشموع ، واخذت اصوات الرهبان تعلو ، مرتلة الصلاة على انغام الارغن ، ثم تقدم الناس فى صف طويل نحو التابوت يمرون به ـ الواحد تلو الآخر ـ ينضحونه بماء مقدس من « قمقم » فضى ، ومشى « محسن » فى الصف ذاهلا خائفا أن يحدث صوتا على أرض الكنيسة ، وانتبه قليلا، فراى القمقم فى أيدى من أمامه فى الصف ، يرسم به الواحد علامة الصليب، وهو ينضح به الميت ، ثم يسلمه فى صمت الى من خلفه ، وراقب الفتى هذا العمل يتكرر اكثر من خمسين مرة ، وهو يحسب ألف حساب لنوبته ، واذهلته الرهبة فما راعه الا والقمقم يسلم اليه ممن امامه فتناوله بيد ترتجف ، ولوح به نحو التابوت ، راسما فى الهواء علامة ، لا يدرى من فرط اضطرابه : أدلت على صليب ام على هلال !.. ثم نضح التابوت على نحو خشى معه أن يكون قد أكثر فبلل الغطاء ، ولكنه فرغ من مهمته على أى حال ، فتنفس الصعداء ، ومد

يده بالقمقم يسلمه الى من يليه ، فلم يجد خلفه أحدا .. كان هو الاخير فى الصف .. ياللكارثة !.. ما العمل ؟!.. وحار وارتبك بهذا القمقم فى يده ، لا يدرى ما يصنع به ، وقد اشتغل عنه القوم بتعزية أهل الميت الواقفين عند باب الخروج ، وتصبب العرق باردا من جبينه .. انه يحمل فى يده شيئا مقدسا .. كيف اذن يتصرف من تلقاء نفسه ، فى شىء مملوك لله داخل بيت الله ؟! انها لمسئولية عظمى ! ولمحه أحد القسيسين فى هذا الموقف فبادر اليه وحمل عنه العبء ، فانصرف الفتى ، وكأنه يقول فى سذاجه : « ما أقوى كواهل أولئك الرجال الذين يتحملون كل التبعات ، فى ادارة ممتلكات السماء !.. » وأسرع « محسن » الى اللحاق بالصف ، كى يعزى أهل الميت ، فما كاد يتقدم اليهم فى ملابسه السوداء ، حتى حملقوا فيه ، كأنما هم يتذكرون او يتساءلون عن هذا الصديق الحميم ، الذى أتى يشاركهم مصابهم فى ثياب حداد كاملة ، لم يرتد مثلها بعض أقارب الميت ولا ذويه !.. وأعياهم التذكر وفهم «محسن» مايجول بخاطرهم ، فلفظ سريعا بضع كلمات غير مفهومة ، وانطلق الى الخارج .. فوجد أندريه واقفا تحت مظلة جديدة بين بقية المشيعين المنتظرين خروج التابوت !..

ورأى الفرنسى صديقه فابتدره محملقا فى وجهه :

ــ مالك أصفر الوجه ؟!..

فلم يجب « محسن » بغير قوله :

ــ اذهب وادفن زميلك ، أما أنا فانى انتظرك فى قهوة « الدوم » !

واختفى سريعا ، قبل أن يترك لاندريه وقتا للكلام ..

☐

جلس « محسن » وصاحبه أندريه ، فى قهوة «الدوم»

بحى « مونبارناس » ، وهى ملتقى أهل الفن : من مصورين ومثالين وشعراء ، وهى من أجل ذلك ذات شهرة وصيت ، وهبط فى ذلك العام سعر الفرنك الفرنسى ، فهبط باريس سائحون كثيرون ، أغلبهم من الامريكان ، انتشروا كالذباب فى كل مكان !..

وطلب «محسن» قدحا من عصيرالبرتقال، جعل يرشف منه فى بطء ، من خلال ذلك العود المجوف من القش ، وطلب « أندريه » كأسا من « البرنو » أخذ منه جرعة ، ثم التفت الى صديقه قائلا :

ـ اتدرى اين دفنوا زوج بنت « مدام شارل » ؟

ـ لا اريد أن أعرف اين دفنوه !..

ـ لماذا ؟

فضاق « محسن » ذرعا :

ـ وبعد ؟... أخبرنى بحق ربك ، متى تعتقنى من هذا المدعو زوج بنت « مدام شارل » ؟! أما كفاك أنى صليت على روحه فى الكنيسة ، ونضحته من القمقم المقدس؟!...آه ! ... اننى لن اغتفر لك هذا التهاون منك .انك كنت تعرف أنى داخل هذا الحرم المقدس ، ولا تقول لى حتى أعد نفسى!

فابتسم « أندريه » وقال :

ـ أيها العصفور الشرقى !... تعد نفسك لدخول الكنيسة ؟!... ما معنى هذا ؟... انا ندخلها كما ندخل القهوة ... أى فرق ؟؟..هناك محل عام ، وهنا محل عام. هناك الأرغن ، وهنا الأوركستر !...

فلم يلتفت اليه « محسن » وهمس كالمخاطب لنفسه :

ـ بل هناك السماء !... وليس من السهل على النفس الصعود فى كل لحظة ... انه لمجهود !...

فلم يبد على الفرنسى انه فهم «محسن» ، ولم يكلف نفسه

عناء سؤاله ، ورفع كأسه ، وجرع جرعة أخرى ، ثم أشار بطرف عينه الى أمريكية حسناء ، جالسة مع أسرتها على مقربة منهما ، وهى لاتفتر عن النظر الى من حولها من فنانين، ووقعت عيناها آخر الامر على « محسن » فى ثيابه السوداء، فغمزت من معها وهمست اليهم بكلام !...

ولحظ « محسن » نظراتها فقال لأندريه فى صوت منخفض :

- لماذا يرمقوننى هكذا ؟...

- يحسبونك من أهل الفن ، بهذه القبعة وهذه الملابس!

- انهم ينظرون الى ، كما ينظر الانسان الى طائر غريب! ... أو لم يروا فنانا قط ؟... يخيل الى يا « اندريه » أن هؤلاء الامريكان قوم خلقوا من الاسمنت المسلح : لاروح فيهم ولا ذوق ، ولا ماض !... اذا فتحت صدر الواحد منهم وجدت في موضع القلب « دولارا » !... انهم ليأتون الى هذا العالم القديم ، حاسبين أنهم بالذهب يستطيعون أن يشتروا لأنفسهم ذوقا ، ولبلادهم ماضيا !...

ولم يظهر على « أندريه » أنه أصغى الى كلام صديقه كله، فلقد كانت عيناه تتبعان الامريكية ، فقال :

- أهذه بربك من الاسمنت المسلح ؟!...

- لا تطيل اليها النظر هكذا . والا قلت لزوجتك « جرمين » !...

فهز الفرنسى كتفيه ، ومضى فى اظهار اعجابه :

- تأمل هاتين العينين الزرقاوين ، كأنهما فى لون زرقتهما بحيرتان من بحيرات الجنة !...

- كلا ... بحيرات الجنة من لون الفيروز !! ...

ـ أيها المفتون !••• انك لاترى غير عينى فاتنتك التى لا تعرف أسمها !!•••

فنظر « محسن » الى الفضاء باسما سابحا بخياله ، ثم قال :

ـ أعرف صوتها ، وهذا ليس بالقليل•••ليلة الامس فى « الاوبرا » ؟

ـ كنت فى « الاوبرا » ؟

ـ اطمئن ••• أعلى «التياترو» ••• وسمعت صوتها•• أعنى صوتا كصوتها ••• كل صوت جميل هو صوتها••• سمعته يغنى :

« قلبى يتفتـــــح لصـــــــوتك
كما تتفتح الازهار لقبلات الصباح »



ليلة جميلة

الفصل الثانى

جلس محسن كعادته كل صباح الى مائدة المطبخ ، فى المنزل الذى يقطنه ، آمنـا شر البرد القارس فى الطريق ، مستعذبا نقر المطر على زجاج النافذة ، كأنه نقر أطفال على طبول صغيرة ، وقد وضـع على رأسـه قلنسوة مصرية من « الكستور » وفتـح أمامه كتاب الجمهـورية ، للفيلسوف أفلاطون ، وأمسك سكينا جعل يقشر بها بصلا ، وبين آن وآن يلتفت الى طفل فى الرابعة ، يلعب فى أحـد الاركان متقلدا سيفا زائفا مما يلعب به الاطفال ، ومصـوبا مدفعا صغيرا من الصفيح نحو أعـداء وهميين من الالمـان : وكان الطفل يثرثر ويصيح ، موجهـا الكلام : تارة الى أعدائه ، وتارة الى جدته العجوز الواقفة أمام النار ، تهيىء مرقا من لحم البقر ، وهى لاهية عنه وعما يقول !...وأخيرا التفتت اليه وسألته :

ـ ألست جوعان يا « جانو » ؟...

ـ كلا . انى أحارب « البوش » ...

فقالت جدته فى تحمس :

ـ نعم !... قاتل « البوش » يا « جانو » ! ... ولا تبق منهم أحدا على وجه الارض !...

فرفع « محسن » رأسه مستغربا هذه الكلمة ، وقال :

ـ « البوش » ؟... من هم البوش ؟...

فابتسمت العجوز وقالت :
ـ هم الالمان ... نحن ـ عامة الفرنسيين ـ نطلق عليهم هذا الاسم !...
وصاح « جانو » :
ـ نعم هم الالمان ... جدتي !... لماذا هم ، يسمون البوش ؟...
ففكرت المرأة قليلا ، ولم يسعفها علمها المحدود وقالت:
ـ لست أدري ...
وأسرعت فغيرت مجرى الحديث ناظرة الى « محسن » مبتسمة لانهماكه في عمله :
ـ « برافو يا مسيو « محسن » !... انك لبارع حقا في تقشير البصل !...
فقال « محسن » دون أن يبدو في نبراته تهكم أو تلميح:
ـ براعتك يا سيدتي في الغناء والعزف على «البيانو»!..
فابتسمت ، ولم تدرك مراده وقالت :
ـ يا لك من فتى متملق !...
وأخفى « محسن » في نفسه ابتسامة لذكرى ذلك اليوم الذي هبط فيه هذا المنزل . فقد أرادت هذه المرأة أن تدخل على نفسه السرور ، وتملأ المنزل بهجة ومرحا ، فأرسلت في طلب « جرمين » زوجة ابنها ، وأجلستها الى « البيانو » ، وأخذت هي في الغناء بصوت لم يعرف له « محسن » أصلا من الاصول ، واذا الغناء ينتهي بصيحة، ظنها « محسن » داخلة في تركيب النغم !... ولكنها كانت صيحة شجار ، دب فجأة بين الحماة وزوجة ابنها، واستفحل أمر الخلاف بينهما الى حد أزعج الفتى ، فما راعه الا غطاء « البيانو » يغلق في عنف . وزوج الابن تقوم الى قبعتها ومعطفها ، فتضعهما عليها وضعا في غضب ، وتذهب نحو

الباب تريد الانصراف ، وانقلب المنزل فى لحظة شرعنقلب، وامتلأ - لا بالمرح والبهجة والسلام - ولكن بالكدر والكرب !٠٠ وما من سبب ظاهر استطاع محسن أن يستخلصه لكل هذا ٠٠٠ منذ ذلك اليوم و « محسن » يحسب حسابا لعزف العجوز وغنائها ٠ واذا عزفت مرة أو غنت ، رفع عينيه الى السماء ، وسأل المولى حسن الختام !٠٠٠

التفتت العجوز مرة أخرى الى « محسن » والى البصل ، ثم قالت باسمة :

- لا بأس !٠٠٠ لك عندى ثمن عملك هذا يا مسيو « محسن » !٠٠٠ أتدرى ما هو الثمن ؟ سأعزف لك أغنية على البيانو ؟

فلم يملك محسن نفسه وقال :

- أتسمين هذا ثمنا ؟!

ثم استدرك ، وقال سريعا :

- أية أغنية ؟ ينبغى أن نتفق على الاغنية أولا ٠٠٠

فقالت المرأة :

- الاغنية التى تحبها ، تلك التى قلت لى انك سمعتها فى دار « الاوبرا »

فاهتز « محسن » فى كرسيه ، وأنشد على الفور مطلع أغنية « سان سانس » :

« قلبى يتفتح لصوتك كما تتفتح الازهار لقبلات الصباح ! »

فنظرت اليه المرأة فى عجب :

- ما أشد حبك للموسيقى !٠٠٠

- انها فى دمى !

قالها محسن فى بساطة تنم عن حقيقة عميقة ، وفى لهجة

تشير ـ عن غير قصد ـ الى ماضيه بأكمله !... ثم تناول السكين ، واستأنف تقشير البصل ، وهو يصغى فى أعماق نفسه الى أنغام تلك الاغنية ليلة أنشدتها « نينون فالان » الشهيرة ، فى أوبرا « باريس » منذ شهرين . ليلة جميلة عجيبة لاينساها « محسن » ، فقد رأى فيها ما لم ير من قبل ، وسمع ما لم يسمع ، ولقد أراد فى تلك الليلة أن يتشبه ـ لأول مرة ـ بالموسرين ، فاستأجر مقعدا فى صفهم، وهو لايعلم أن ذلك يستلزم لبس ثياب السهرة الرسمية، ونبهته العجوز ، فحار فى شأنه ، اذ ليس لديه هذا اللباس ، ورأى آخر الامر أن يلجأ الى الحيلة ، فاشترى صدر قميص أبيض منشى ، ربطه على صدره رباطا وثيقا ، بخيوط (الدوبارة) ، ثم أتى بأكمام منشاة ربطها كذلك حول معصميه ، وارتدى ملابسه العادية السوداء فوق هذا كله ، والعجوز تنظر اليه وتقول : « ولو أنه حدث الليلة حادث استدعى خلع ملابسك لوجدوا فيك عجبا : انسانا مربطا بالخيوط من الداخل (كطرد) البريد ! » ، وحان الوقت ، ودخل « محسن » « الاوبرا » ، فما تمالك أن وقف مشدوها : أية عظمة وأى ثراء يشعران بالدوار؟!.. وأى أنوار ؟!...

وأدرك من فوره معنى مجسما لكلمة (الحضارة الغربية الكبرى) التى بسطت جناحيها على العالم !...

نعم ، ما كل هذا البذخ والاغراق فى الترف ، الى حد الكفر والفجور والاستهتار، لكأنما جاء القوم ـ وأغلبهم من سراة الامريكان الى هذا المكان ـ يتساجلون الغنى والسعة وكبرياء المال ، أكثر مما جاءوا يلتمسون لذة التطهر والخضوع فى حضرة الفن ، أو لذة العودة الى الانسانية والروح على يد الموسيقى ! ..

وصعد « محسن » سلم « الاوبرا » المشهور ، وهو



والعجوز تنظر اليه وتقول : « ولو انه حـدث
الليلة حادث استدعى خلع ملابسك لوجدوا فيك
عجبا: انسانا مربطا بالخيوط من الداخل (كطرد) البريد »

يتصبب خجلا بين الصاعدين من أصحاب (الفراك) الثمين ، والقبعة العالية ، والقميص المنشى (الحقيقى) ، والسيدات الانيقات فى أثواب الليل البراقة ، والحلى المتألقة ، كأنهن الشموس فى عالم الماس ، وخيل الى « محسن » انه قد دخل بين هؤلاء القوم بالغش والتدليس ، وأن هذا السلم الشهير يأنف من حمله وقد مرت عليه السنون ، وهو يحمل الجاه والمال فى العالم قاطبة ، ولعله المكان الوحيد الذى لا شك قد وطئته أقدام جميع الملوك ، فليس ببعيد أن يغضب السلم فى هذه اللحظة ويزلزل بـ « محسن » صائحا : « لم يبق على آخر الزمان الا أن يطأنى ، بنعله القديم ، مثل هذا الصعلوك القادم من الشرق ! .. » وتصور « محسن » أن خيوطه قد تحل لسبب من الاسباب ، فيسقط الصدر المنشى على الرخام ، وسط أولئك القوم المترفين فتكون الفضيحة ! .. كانت ليلة أحس فيها الحرج والمذلة ، وعلم أن ثمرات الفن انما هى أيضا حق ، ووقف على طبقة الاغنياء ، وأن الطريق الى الاستمتاع الروحى ينبغى أيضا ان يفرش بالذهب ، وتمثلت له تلك الجمهورية الجميلة التى تخيلها الشعراء والفلاسفة فى كل زمان : جمهورية لا تعرف الذهب ، وتعرف السلام لانها لا تعرف الجشع .. الكل فيها مثل فرد واحد ، الكل يقرأ وينعم ، والكل يلعب ويمرح .. اما الذهب فانهم يصنعون منه مصابيح الطرقات وحوافر الجياد .. ياللسماء ! .. أو مستطاع لمثل هذا الحلم الجميل أن يتحقق يوما ، على هذه الارض ؟! ..

وتنبه « محسن » قليلا ، وترك تأملاته ، ورفع رأسه ، فألفى السكون قد هبط على هذا المنزل الريفي الصغير ، ولم يسمع الا صوت لقط الدجاج فى الحديقة ، وصياح الديكة وهرج الاوز ، ثم ثرثرة « جانو » مخاطبا لعبه بين

آن وآن . وكأنما سئم « جانو » اللعب آخر الامر ، فنهض ودنا من المرآة صائحا فى لهجته الصبيانية :

ــ جدتى ! .. ألدجاجة الحمراء تبيض اليوم

فأجابت جدته فى تقطيب :

ــ « جانو » ! .. انى لا آذن لك فى الذهاب الى الدجاج وحدك ..

ــ سأذهب مع مسيو « محسن » ..

ــ لن تذهب اليوم ! .. ان المطر ينهمر فىالخارج والبرد شديد ! ..

ــ وماذا أصنع الآن ؟ ..

ــ حارب « البوش » ! ..

ــ حاربتهم .. !

ــ قص على مسيو « محسن » كيف أراد الألمـــان ان يدمروا باريس ! .. الا تذكر ما قلته لك عن هذا ؟ ..

ــ كلا . انى اريد ان اعود الى منزلنا ! ...

ــ منزلكم خاو الآن ، وليس به أحد . انت تعلم أن اباك وامك لايرجعان من المصنع قبل الغروب ! ..

دمدم الطفل وتبرم فى صــوت كالبكاء ، ثم مشى فى بطء الى حيث يجلس « محسن » ، وجعل ينظر اليه ، ثم مد يده الصغيرة الى الكتاب المفتوح فوق المائدة ، وطفق يقلب صفحاته باحثا عن صورة فيه ، ولم يتحرك « محسن » ، فقد كان عقله مشغولا ، ونظراته جامدة ، لاتتجه الى شىء بعينه ، انما كان يتساءل فى أعماق نفسه :

ــ أليس فى كل فرنســـا أمهات يلقن أطفالهن كراهية الألمان ؟ ... ومن يدرى ؟ ... لعل كل نساء المانيا يعلمن اطفالهن كذلك بغض الفرنسيين ! ... ولتكن الأســباب

ماتكون . . . بأى حق تستطيع أم أن تنشىء ولدا على العداوة والبغضاء ؟ !! .

وانتشرت فى المكان رائحة شواء شهى ، فرفع «محسن» بصره ، فألفى المرأة تخرج من الفرن فخذا من لحم البقر ، أخذت تدهنه بالزبد وهى تقول :

ـ سيحضرون هذا المساء فى الساعة السابعة للعشاء !..

فقاطعها جانو صائحا فى فرح :

ـ وهل « جيزيل » ستحضر أيضا يا جدتى ؟

فابتسمت المرأة والتفتت الى « محسن » غامزة بعينها :

ـ بالطبع ، ستحضر « جيزيل » مع والديها !

فتهلل وجـــه الطفل ، وطفق يثرثر كالببغاء ، وابتسم « محسن » متذكرا أيام الطفولة الأولى !

□

دقت الساعة الواحدة فى مصانع « كوربفوا » فأسرعت المرأة الى قاعة الأكل ، وجعلت تهيىء مائدة الغداء ، وسمع صرير مفتاح فى الباب الخارجى ، ثم بدا فى الدار شيخ ، ما كاد « جانوا » يسمع صوت نعاله وسعاله ، حتى انطلق نحوه يجرى ويصيح : « جدى حضر .. ! جدى حضر . ! » ودخل الرجل المطبخ ، ونشر مظلة فى يده بللهـا ماء المطر ، ومد يديه الى النار ، وهو يحـادث زوجه فى شئون المعاش بعبارات يقطعها سعال عنيف ... وأصغت اليه المرأة حتى فرغ من حديثه ، فقالت له فى صوت اليائس :

ـ صفوة القول، ليس لنا أن نأمل فى عمل بأحد المصانع، أليس الأمر كذلك ؟ ...

ـ الوقت عسير ياعزيزتى ، والمصـانع لاتريد أن تمنح أمثالنا القوت ، لأن لديها حاجتها من العمـال . من أولئك

العمال المساكين ،الذين تسخرهم طول اليوم من اجل لقمة كالعبيد ! ...

ـ وماذا نصنع نحن اذن ؟ ينبغى أن تـذكر أن ولديك « أندريه » و « مارسيل » لن يستطيعا بعداليوم امدادنا بالمال فلقد اعتزم « اندريه » الحاق « جانو » بمدرسة داخلية ، وفى هـذا باب جديد للنفقات سيتكلفه المسكين ، كذلك «ماسيل» يتكلف الباهظ من المال منذ عام فى الانفاق على مدرسة « جيزيل » ! ..

فاطرق الرجل مليا ثم قال :

ـ صدقت ! .. ليس لنا اذن من مورد الا ..

والتفت يمنة ويسرة باحثا عن « محسن » بعينين خابيتين تحت المنظار .. وادركت المرأة مراده والتفتت الى مكان « محسن » من مائدة المطبخ فوجدته خاليا فقالت :

ـ « عصفور الشرق » صعد الى حجرته من غير شك، كى يضع كتابه ويتهيأ للغداء ... نعم ليس لنا من مورد الا ما يدفعه هذا الشاب

صمت الرجل لحظة متفكرا ثم قال :

ـ اترى تطول اقامته بيننا ؟...

ـ من يدرى ؟... لقد قال لى ذات يوم انه سيمكث عامين أو ثلاثة ... آمل ألا يسأم حياة الريف ، ويفر الى باريس!

فظهر القلق على وجـه الشيخ ، ثم نظر مفكرا الى النار المتأججة فى الوجاق ، وقال كمن يدخل على نفسه الاطمئنان:

ـ كلا ، انه ، فيما يبدو لى ، شـاب لايميـل الى اللهو كسائر الشبان !

ـ حقيقة ، أنه لايحب سوى المطالعة والتأمل والموسيقى،

لكن من يدرى ان كان يلبث فينا كل مدته ؟ ليس لنا الا أن نأمل !...

هز الرجل رأسه وأطرق صامتا ، ثم دس يده فى جيبه، وأخرج لفافة تبغ ، وجاء « جانو » يجرى وقفز الى ساق جده فامتطاها ، كما يمتطى الحصان ، وطفق يحدثه بمجىء « جيزيل » المنتظر !...



عبيد المصنع

الفصل الثالث

فرغوا من الغداء وانصرفت المرأة الى الأواني والأطباق تغسلها فى المطبخ وتتأهب للعشاء ، وجلس زوجها على مقربة منهـا يدخن ويطالع جريدة « الأمانيتيه » ـ الانسـانية ـ المنتشرة فى طبقة العمال وأهل الفاقة .وخلا « جانو » الى لعبه ومدافعه وحربه الضروس ، وأغلق « محسن » حجرته عليه ، ووضع كتابه أمامه وقرأ صفحتين ، ثم جمدت عيناه على الكتاب ، ولم يعد يقرأ أو يبصر شيئا ، فقد ترك الحجرة ، وغادر الارض ، وضل فى بحار التأملات !...

وأقبل المساء أخيرا ، ورن جرس باب الحديقـة ، فترك « جانو » لعبه وأسرع نحوه ، ثم لم يلبث أن صاح في فرح: « ماما حضرت ! بابا حضر ! » وظهـرت امرأة فى مقتبـل العمر ، جذابة الوجه ، تعلق بها « جانو » ، وهى تدفعـه عنها في رفق ، وخلفها زوجها « أندريه » ، وعليهما ، هما الاثنان ، مظاهر التعب والقوى المنهوكة ، ومسحت العجوز يديها فى « فوطة » المطبخ التى ترتديها ، وأقبلت على زوج ابنها تعانقها ، وتتأمل وجهها وتقول فى حسرة متصنعة :

ـ انك متعبة منهوكة القوى يا « جرمين » !...

فأجابت الزوجة ، وهى تنظر الى زوجها الشاب :

ـ اننا لم نخرج من المصنع الا الساعة !...

واتجهت العجوز الى ابنهـا تعانقه ، وتصيح فى حرارة حقيقية :

ـ وأنت أيضا يا «أندريه » ! ما كل هذا الشحوب؟...

ـ اننا يا أماه نعمل ثمانى ساعات فى النهار !...

قالها « أندريه » وهـو ينظر الى أبيه ، وكان أبوه قـد طرح الصحيفة من يده ، واتجه الى « جرمين » و « جانو » يباسطهما ، فلما سمع قول « اندريه » صاح فى حدة :

ـ يا لها من وحشية !... ان هذا لم يعد يسمى عملا، انما هو الاسترقاق ... الرق لم يذهب من الوجود ... لقد اتخذ شكلا آخر يناسب القرن العشرين ... ها هى ذى جيوش من العبيد يسخرها أفراد معدودون من السادة الرأسماليين !...

ورفع « جانو » بصره الى جده ، ولم يدرك سببا لحدته !

وحانت من « أندريه » التفاتة الى الصحيفـة الملقاة على الارض ، فابتسم وقال :

ـ أهذا ما قرأته اليوم فى « الأومانيتيه » يا أبتاه؟...

فأجاب الرجل فى جد وحدة :

ـ نعم ، أوليس هذا هو الحق ؟!...

ـ من غير شك ، هـذا هو الحق ، لكن ماذا نصنع نحن الفقراء ؟...

ـ ينبغى أن تنقص سـاعات العمـل على الاقل ، حتى تستردوا بعض حريتكم وبعض وقتكم ، وحتى تنقذوا مابقى لكم من صحتكم ، وحتى نجـد لنا ــ نحن العاطلين ــ عملا وكسبا نسد به الرمق !...

ـ انك تجهد نفسك فى الكلام يا أبتاه !... لقد قلت الحقيقة : نحن عبيد القرن العشرين ، ومتى كان للعبيد حق الاعتراض أو حق الاقتراح ؟...

وأراد الشيخ أن يجيب ، ولكن « جانو » تململ ونظر الى والديه ، والى جدته وصاح :

ـ لماذا أبطأت « جيزيل » ؟

وجعل الطفل يجذب ثياب أمه ملحا فى السؤال، فضربت الام على يده الصغيرة في لطف ، وخلصت ثيابها منه ، وأرادت جدته أن تقصيه ، فقالت له :

ـ اذهب وجيء بمسيو « محسن » فقد أزف ميعاد العشاء!

وتنبه « أندريه » فسأل على الفور :

ـ أين عصفور الشرق ؟ ... لقد فاتني أن أسأل عنه ساعة دخولى !؟ ...

ـ فى حجرته ! ...

فاتجه « أندريه » نحو سلم الدار ثم عاد يقول :

ـ لست أرى نورا فى حجرته ! ...

فأجابت الام العجوز ، وهى تقطع رغيفا طويلا من الخبز:

ـ انه فى حجرته ، جالس الى مكتبه ، وطالما يفاجئه المساء ، وهو أمام كتابه بلا حراك ، وكثيرا ما أدخل حجرته فأجد الظلام مخيما عليه ، وهو جالس جامد كالتمثال، فأدير له مفتاح الكهرباء ! ...

ـ انه غريب الاطوار ! ... انى أعرفه حق المعرفة ! ...

وعندئذ دق جرس الباب الحديدى ، فمرق « جانو » من بين الجميع الى الباب ، وهو يصيح كالعصفور الصغير :

ـ « جيزيل » ! ...

□

اجتمع الكل حول المائدة ، وكانوا قد انتهوا من العشاء منذ قليل ، ولبثوا فى مقاعدهم يتحدثون عن الاشتراكية ، وقد فشا أمرها فى باريس ، وأمست بدعة من البدع ،

يتبعها الناس مقلدين ... ان الحياة أمست عسيرة ، وان سعر الفرنك هوى الى الحضيض ، وان فرنسا الآن فريسة أصحاب المال الامريكيين ، وان هؤلاء الامريكان قد بلغ عتوهم واعتدادهم بثرائهم أن الواحد منهم لايوقد « سيجارة » الا بورقة مالية مشتعلة ، تحت أنظار الشعب الفرنسى الفقير!

... هنالك صاح زوجها الشيخ فى غيظ :

ــ يا لهم من أنذال !...

ثم استطردت العجوز فجأة ، وكأنها استكشفت شيئا:

ــ لاريب أنهم هم السبب فى غلاء أسعار الخضر واللحم والفاكهة !؟...

وألقت نظرة استفهام على الحاضرين ، فاذا هى ترى «جانو» وابنة عمه « جيزيل » قد جلسا متلاصقين ، يأكلان «الجاتو» ولا يكفان عن الكلام !...

ونفد نصيب « جانو » فجعل ينظر الى جيزيل » التى تكبره بعامين ، وهى تأكل فى تؤدة وكياسة ، وفطنت الطفلة الى فمه العاطل ، والى نظراته الطامعة ، فماترددت، وتقدمت الى صديقها بكل ما بقى لها . ولم يأب عليها « جانو » ، وقبل منها هديتها ، وطفق يلتهم ما أعطته اياه ، وهو ينظر اليها بعينين باسمتين ، كلها اعتراف بالجميل ، لكنه لم يقل شيئا ... هنالك تجهمت له جدته وصاحت به :

ــ « جانو » !... ألا تقول لها شيئا ؟...

فالتفت الطفل الى جدته فى سذاجة :

ــ أقول ماذا ؟ ...

ــ تقول ماذا ؟ تقول مايقول الناس ، عندما يتقبلون شيئا من الغير !...

ــ ماذا يقولون ؟

ــ يقولون : « شكرا » ، ولقد علمتك ذلك ألف مرة

ثم التفتت الى والدى الطفل فى قنوط :

ـ لم يبق لى جلد على تهذيب هذا الغلام ، وانى أصارحكما القول : هذا ليس من عملي ، انما هو من عمل الابوين ، وما دمتما تتركان لى ابنكما طول النهار ، وتنصرفان الى المصنع، فلا أمل فى أن ينشأ ولدكما على الخلق القويم !...

فأجاب « أندريه » فى غير اكتراث :

ـ وهل تظنين يا أماه أن هذا من عملنا نحن؟... هذا من عمل المدرسة ، وسندخله المدرسة ، أما نحن فلدينا عمل آخر كما تعلمين !...

ـ نعم ... المصنع !...

فقال الشيخ فى تهكم :

ـ بالطبع ... المصنع !!...

فهزت « جرمين » كتفيها ، فقالت العجوز فى حدة :

ـ لاتهـزى كتفيـك يا « جرمين » !... اياك أن تنسى لحظة أهمية تأثير البيت ... فى زماننا كان البيت هو كل شيء !... آه ، لقد ذهب كل شيء طيب بذهاب زماننا!..

فقال « أندريه » وأخوه « مارسيل » فى وقت واحد :

ـ أين هو البيت اليوم يا أماه ؟...

فتأملت العجوز قليلا هذا القول منهما ، ثم أجابت :

ـ صدقتكما ، لم تعد هنالك أسرة ... الرجل والمرأة فى المصنع طول النهار !... يا له من زمن عجيب !...

فقال الشيخ فى قوة واقتناع :

ـ قلت لكم هذا عصر العبيد قد عاد من جديد !...

وانتبه « محسن » لهذه العبـارة ، فلمعت عيناه ببريق غريب ، ثم لم يلبث أن استأذن من الحاضرين فى الصعود الى حجرته ، فأذنوا له باسمين ، فصعـد وجلس الى مكتبه فى الظلام ، وهو يهمس :

ـ نعم ، لم يذهب الرق من الوجود ... لكل عصر رقه وعبيده ! ...

فى قفص الحُب

الفصل الرابع

لم يمكث « محسن » غارقا فى تأملاته طويلا ، فقد ضرب عليه الباب ، فانتبه ، واذا صديقه « أندريه » وزوجته « جرمين » يصيحان به :

ـ عصفور الشرق وحيد فى القفص ! ...

فقال « محسن » كالمخاطب نفسه :

ـ انى دائما فى قفص !...

فقال « أندريه » فى ابتسامة خبث :

ـ فى قفص الحب سجين أيها المسكين !...

ـ نعم سجين !...

فقالت جرمين باسمة :

ـ أتعترف بهذه السهولة ؟...

ـ وما فائدة الانكار ؟...

ـ ولماذا لاتنطلق حرا مغردا فى فضاء الحب ؟...

فأسرع « أندريه » قائلا :

ـ انك تطلبين المستحيل . انه سيظل دائما هكذا ، انه حتى الآن لم ينجح حتى فى الوصول الى معرفة اسمها..!

فقالت « جرمين » فى ضحكة خفيفة :

ـ لم يعرف بعد اسمها !... حقا انه لمحب خائب!...

فاتخذ وجه « محسن » لون الجد الصارم ، وقال فى هدوء وموافقة واقتناع :

ـ أما انى محب خائب ، فهذا صحيح ، ولا محل للجدل فيه ، وقد أعيتنى هذه الخيبة فى كل زمان ومكان !...

فقال أندريه سائلا :

ـ ألم ترها اليوم ؟...

ـ لم أرها منذ أسبوع ، ولم أنصرف الى غير مطالعاتى ، ان الكتب تستطيع أن تشغل رأسى حقيقة ، لكن هل الرأس هو كل شىء فى حياة انسان ؟ ... آه ! ... ان اجمل لحظاتى ساعة أقف أمامها أنتظر ، وأنا أعلم انها لن تلقى الى بكلمة تسر خاطرى ... مرة واحدة نظرت الى عفوا نظرة وقالت لى :

ـ اما تزال واقفا ها هنا ؟ ... اى مخلوق انت ؟! ...

ـ وما قصدها من هذا ؟

ـ لست أدرى !... فسر هذه الجملة كما تشاء ...أما أنا فقد فسرتها طبعا لمصلحتى ... انى أحب هذه العبارات المبهمة التى أتخيل معناها كما أشاء !...

ـ انك رجل خيالى ، وهذه مصيبتك !...

قالها « أندريه » وهو ينظر الى « جرمين » ، فأمنت على قوله برأسها وأضافت :

ـ من غير شك ، لاسبب عندى لفشل «محسن» غير أنه خيالى أكثر مما ينبغى ، والمرأة لاتقنص بالخيال ، بل بالحقيقة

فلم يعترض « محسن » وقال فى اذعان :

ـ وأين هذه الحقيقة ؟... امنحانى هـذه الحقيقة التى أكسب بها عطف المرأة !؟...

فقالت « جرمين » :

ـ أتريد أن تعلم أين تجد هذه الحقيقة ؟

ـ نعم أخبرينى أين هى ، وأنا لا أنسى لك أبدا هـذا الجميل ا ...

ـ انها تشترى بالثمن ؟...

ـ كم الثمن ؟ كل حياتى فيما أعتقد !

ـ بل عشرون فرنكا فقط ...

ـ أتمزحين ؟...

ـ بل أقول جدا . عشرون فرنكا فقط ، تشترى بهامن حانوت شارع « هوسـمان » زجاجـة عطر « هوبيجـان » صغيرة ، وتقدمها الى صاحبتك فى الصباح ... هـذه هى كل الحقيقة ... أفهمت ؟...

فحلق « محسن » فى الفضـاء ، كأنما قد كشف عنـه حجاب ، ثم التفت الى جرمين وقال :

ـ أحقا ما تقولين ؟...

فابتسمت « جرمين » وقالت فى صوت المتعجب :

ـ يدهشنى أن فتى ذكيا مثلك يجهل هذا ! ...

ـ قارورة « هوبيجان » فقط !..ثمنها عشرون فرنكا!.. انك تبالغين يا سـيدتى !... انها لجـديرة أن أضع تحت شباكها قلبى كله !...

ـ شباكها ؟!...

ـلن أقدم لها شيئا زهيدا من هذه الاشياء !...

ـ أين صاحبتك يا«محسن» ؟

فأجاب « أندريه » فى الحال عن صديقه باسما :

ـ قلت لك يا «جرمين» انه لايعرف من هى ، ولا يدرى عنها شيئا !...

فقال « محسن » دون أن يخرج عن هدوئه :

ـ هذا صحيح !...

وازداد عجب « جرمين » فقالت تسأل الفتى :

ـ يا للغرابة !... وأين تراها اذن ؟!

فأجاب محسن :

ـ أراها فى شباكها ، تشرق على الناس بعينين من فيروز، وهم يمرون أمامها الواحد تلو الآخر ، من كل جنس ومن كل طبقة فيهم الفقير مثلى ، وفيهم الموسر مثل ملك الملوك ... نعم ! يمر بين يديهـا كل يوم هـذا الموكب ، وهى تبسم من شباكها بين آن وآن ، دون أن يعرف أحـد سر قلبها !...

فنظرت « جرمين » الى « محسن » مليا ثم قالت :

ـ أهذه المرأة فى باريس ؟... أم فى كتاب ألف ليلة وليلة !...

وقال « أندريه » ضاحكا :

ـ وهذا الشباك أين هو ؟... فى أى قصر سحرى؟..

وأردفت « جرمين » ضاحكة :

ـ وهل توجد حقا فى باريس تلك المرأة التى يمر بين يديها الناس وهى فى الشباك ؟!...

فأجاب « محسن » فى هدوء :

ـ فى شباك التذاكر !...

فصاحت « جرمين » وقد فهمت مراده :

ـ آه ...! هى عاملة فى شباك تذاكر ...!

ـ « تياترو » الاوديون !...

قالها « محسن » كالحالم ، وضحكت « جرمين » ، وضحك « أندريه » ، ثم قال :

ـ أتسمع نصيحتى يا « محسن » ؟... اذهب غدا وقدم

اليها طاقة من الزهر ، ثم ادعها الى العشـــاء فى مطعم من المطاعم !...

فتفكر « محسن » قليلا ثم قال :

ـ واذا لم تقبل منى طاقة الزهر ؟!

فقالت « جرمين » من فورها :

ـ لا يوجد امراة فى باريس ترفض طاقة من الزهر ! ..



هيكل الحُب

الفصل الخامس

ـ « مدموازيل » !... ألم يأت بعد ؟...
ـ من ؟...
ـ ذلك الفتى الذى يضع المعطف الاسود فوق منكبيه .
ـ لست أدرى يا « كلوتيلد » ... لا أظن انى رأيته اليوم
ـ انى أراه دائما جالسا فى القهوة التى أمامنا يطيل النظر الى هذا الباب !...
ـ لعله مجنون !...

وعندئذ اقبل رجل فى سن الشباب جميل الهيئة ، دخل توا على عاملة شباك التذاكر ، من ذلك الباب الذى كتب عليه بخط كبير : « الدخول ممنوع » ، فما ان رأته « كلوتيلد » العجوز حتى تناولت مكنستها ، وهرولت الى عملها ، وهى تهمس :

ـ « الرئيس » !...
ـ من المجنون يا « سوزى » ؟...

قالها ذلك الرجل ، بعد أن ألقى على الفتاة الجميلة نظرة لا يدرك معناها غيرها !... فهزت كتفيها ولم تجب ، فألح الرجل فى شدة وغضب :

ـ قلت لك أريد أن أعرف من المجنون ؟...

فرفعت رأسها ، ونظرت اليـه بعينين متسعتين فى لون

الفيروز ، تزينهما أهداب طويلة شقراء ، ثم قالت فى صوت لايدرك معناه الا هو :

ـ لست أنت المقصود على أى حال !...

ـ من اذن ؟...

ـ فتى آخر كنا نتحدث عنه !...

ـ فتى !!

ـ لست أعرف بعد من يكون ، اعتـاد أن يأتى كل يوم الى هذا الشباك ، فينتظر حتى ينفض الناس ويخلو المكان، فيقدم الى قائلا : « بونجورمدموازيل ! » فأرد عليه التحية، فيقف يطيل الى النظر صامتا ، ثم يتحرك قائلا : «أورفوار مدموازيل ! » ، ويمضى لشأنه !...

ـ أحد المعجبين من غير شك !..

قالها الرئيس الشاب فى نبرة غريبة.فأجابته «سوزى» على الفور :

ـ بل مجنون ... هذا كل اعتقادى !...

ـ حسبتك تعنينى أنا !...

ـ أنت ؟! لا يا عزيزى « هنرى » أنت العقل بعينه ... أنت أعقل مما ينبغى !... آه يا سيدى ، لقد تبين لى أنك أعقل مما كنت أتصور .. هنيئا لك ! ...

قالتها «سوزى» فى اطراق ، وفى شىء من الغضب المكتوم، وأطرق هنرى أيضا ، وجعلت يده تعبث بدفتر التذاكر على حافة الشباك ، وطال بينهما صمت قطعته ، « كلوتيلد » حارسة المقاصير ، صائحة من جوف مقصورة :

ـ مسيو هنرى !... أنعد مكان « الاوركستر » ...

فانتهز « هنرى » الفرصة ، ليخرج من موقفه ، وأسرع الى قاعة المسرح ، وتوسط صفوف المقاعد وصاح :

ـ أيتها الحمقاء «كلوتيلد» !••• الليلة رواية «الارليزيه»! ••• أتريدين « الأرليزية » بغير موسيقي ؟!••• أعدى محل « الاوركستر » حالا أيتها الشمطاء !•••

وعاد السكون الى المكان ، وأرادت « سوزى » أن تعود الى تلاوة قصة «لاجارسون» التى كانت تشغل وقتها الخالى بقراءتها كلما خفت وطأة العمل ، لكن شيئا فى رأسها حال بينها وبين الكتاب ، فجعلت تنظر فى فضاء المكان دون أن تثبت بصرها فى شيء بعينه ، وحانت منها نظرة عارضة الى تمثال « فولتير » الرخامي أمامها فى الردهة ، وعلى شفتيه تلك الابتسامة الساخرة المشهورة ، فحركت أهدابها قليلا وكأنما راعها شيء منه ، لـكنها تمالكت ، وهزت كتفها ، وأخرجت من حقيبة اليد بجانبها علبة أنيقة الشكل ومرآة صغيرة ، وجعلت تطلى وجهها الجميل، حتى ظهرت «كلوتيلد» تقول فى غضب :

ـ أسمعت شتائمه ؟!•••

فقالت « سوزى » فى غير اكتراث :

ـ من ؟•••

فأجابت العجوز وقد استندت الى مكنستها :

ـ «الرئيس»!••• أما رأيت سوء خلقه اليوم ؟!••• انه لاريب قد حدث بينكما شيء يا « مدموازيل سوزى » ، ان خلقه لايسوء الا يوم يكون الامر بينكما •••

فتنهدت « سوزى » ، تنهيدا خفيفا ، وابتسمت ابتسامة فاترة ، ولم تجب •••

لبث « محسن » فى مجلسه من المقهى الذى أمام الأوديون ، يحتسى قدحا من القهوة ممزوجة باللبن، ويتأمل تلك الأعمدة العظيمة التى يقوم عليها بناء المسرح الفخم••• ولا تبرح عيناه الباب ، كأنما هو باب فردوس ، لايدرى

اهو من داخليه ••• أم كتب عليه أن يظل دونه من الضالين!
••• ولم يقطع عليـه تأمله غير حركة فتى وفتاة من أهـل باريس ، يتعانقان خلفه ، ويقبل أحـدهما الآخر علانية، كما اعتاد الباريسيون أن يفعلوا غير حافلين بعاذل أو رقيب!
••• فازور « محسن » عنهما برأسه ، غير راض أن تعرض العواطف هذا العرض ، فى الشوارع والطرقات ، فتبتذل وهى التى ينبغى لها أن تحفظ فى الصدور كما تحفظ اللآلىء فى الاصداف ••• وبينما «محسن» فى تأمله اذا كف قد وضعت على كاهله فالتفت،فرأى «أندريه» يبتسم له ويقول:

ــ ماذا تصنع هنا أمام الاوديون أيها الفتى الشارد ؟!••

ــ أنت ؟ دائما أنت ورائى هكذا !

ــ ماذا تفعل هنا ؟ أجب وأسرع !

فتردد « محسن » قليلا ، ثم أشار الى المسرح قائلا :

ــ انى أتأمل هيكل الفن

فغمز « أندريه » باحدى عينيه وقال :

ــ بل قل هيكل الحب

ــ كلاهما واحد ••• أحـدهما حال فى الآخر ، كالنور فى المصباح !•••

ــ أهى هنا

ــ هى هنا ، ورواية « الأرليزية » هنا ••• آه !•••

ما اجملها وما اجمل الرواية ، نثرا وموسيقى ! ... هنا فى هذا الهيكل قد امتزجت صورتها فى نفسى بصدى أنغام « الانترمتزو » ، ورقصة « الفراندول » !•••

ــ ألم تقدم اليها بعد باقة الزهر أو عطر «الهوبيجان» ؟..

ــ لا زهر ولا عطر ••• انها أعظم قدرا عنـدى ، وأجل خطرا من أن أقدم لها شيئا ، أو أن أوجه اليها كلاما !•••

فبدا العجب فى وجه الفرنسى ، وخيل اليه أنه يسمع ألغازا وطلاسم لاقبل له بفهمها ، فهز كتفيه مريحا نفسه :

ـ تلك ولا شك فلسفة شرقية ! ...

ـ وأنت كيف عثرت على ؟... وما حضورك هنا الساعة، والعمل فى المصنع قائم على قدم وساق ؟!...

ـ لامصنع اليوم ولا قدم ولا ساق ... ألم تقرأ صحف الظهر ؟... قد أضرب العمال فى مصانع « كوربفوا » ، أضربنا جميعا الى أن يعدوا بالنظر فى مطالبنا ... وأما العثور عليك ، ومعرفة مقرك الآن فليس من المعضلات !..

وابتسم « أندريه » فى خبث ، ثم مد يده الى صديقه قائلا :

ـ والآن هلم بنا !...

فنظر اليه الفتى دهشا قلقا :

ـ أين ؟

ـ نحضر اجتماع العمال ...

ـ وما شأنى أنا والعمال ؟...

ـ نزهة قصيرة ...

ـ نزهة ؟ آه يا سيدى !... بعض عطفك وكرمك !.. أخبرنى متى ترحمنى من هذا الذى تسميه : «نزهة قصيرة»؟

ـ يسرنى دائما أن تذهب معى ...

ـ وأنا يسرنى دائما أن تذهب أنت وحدك ... دعنى الآن فيما أنا فيه ... انى كما تعلم لست من العمال المتعطلين ... انك لترى أن لدى عملا ...

ـ فى أى مصنع ؟...

ـ هنا ...

وأشار الفتى بيده الى المسرح ، فضحك «أندريه» وقال:

ـ أتسمي هذا عملا ؟!... آه...أيها العاشق الشرقي الذي ينفق أيامه في قهوة يحلم،وحبيبته على بعدخطوتين!..

سمع الفتى ذلك من صديقه الفرنسى ، فانتفض قائما ، وقد لمعت في رأسه كالبرق صور من الماضى ، فرأى قهوة « الحاج شحاته » فى حى السيدة زينب بالقاهرة ، وذكر جلوس عمه اليوزباشي « سليم » الساعات الطوال ببابها ، شاخصا الى دار محبوبته « سنية » ، آملا أن يلمح لون ثوبها الحريرى الاخضر ، خلف «المشربية» ، وأدرك «محسن» لفوره أنه يصنع الآن فى شارع « الاوديون » عين الذى كان يصنع سليم فى شارع « سلامة » منذ سنوات ... أهى المصادفة ؟... أم أن هذا شىء فى دمه ؟... لايدرى ، غير أنه يحس قوة ترغمه على الجلوس قرب مكانها ، وأنه يحب هذا القرب لذاته ...

وعاد «محسن» فجلس ، واتسعت حدقتا الفرنسى دهشة وصاح :

ــ الا تستطيع أن تبرح هذا المكان ؟ ...

ــ انك ترى بعينيك انى لا أستطيع

فأشار « أندريه » الى « التياترو » بأصبعه :

ــ لماذا لاتذهب اليها فتفاتحها بما فى نفسك ؟...

ــ أأنت مجنون ؟!

ــ أنا المجنون ؟؟!

لفظها الفرنسي وهو ينظر الى « محسن » ولا يجدكلمات يصفه بها ، ومضى الفتى يقول :

ــ ياعزيزى « أندريه » !... ما زال فى رأسي قليل من الادراك ، يكفى لافهامى على الاقل أن مثل هذا الجمال ، فى شباك مفتوح للجمهور ، لا يمكن أن يبقى حتى الآن فى انتظار قدوم هذا الصعلوك الشارد الذى هو أنا ! ...



« .. آه ... ايها العاشق الشرقى الذى ينفق
ايامه فى قهوة يحلم ، وحبيبته على بعد خطوتين !»

ـ تريد أن تقول ان لها عشاقا ؟...
ـ الف عاشق وعاشق ، وقد لايحصون عدا ... كل من حولها يحبها ، ذرات الهواء ، وهوام الفضاء ، ونجوم السماء !..
ـ كفى خيالا وشعرا ... تكلم فى الواقع ... هل أخبروك أنها تحب أحدا بعينه ؟...
ـ انها يا سيدى محبة محبوبة ! ...
ـ كيف علمت ؟
ـ بالفراسة ...
فنضب معين الصبر من صدر الفرنسى وصاح :
ـ الفراسة أيها اللكع ؟ وهذا بابها ، وهذه هى جالسة، أكاد أراها من هنا !... أقسم أنى لم أر مثل هذا فى حياتى !...
فلم يحفل « محسن » لصياحه ، ولم يبد حراكا ، غيرأنه أرسل نظرة الى باب المسرح ، وخطر له طيف « سليم » مرة أخرى ، وهو اليوم زوج لاحدى قريباته ، وأبلولدين صغيرين ، وقد شغل وظيفة عسكرية فى مصلحة خفر السواحل ، وأصبح ذا جسم ممتلىء و « كرش » محترم » ، أما شارباه القائمان فقد هوت بهما الايام ، واتخذت حياة ذلك الرجل الشكل المألوف فى حياة « الملايين » من هذا النمل البشرى ، وقد ذهبت ساعات جلوسه فى قهوة شحاته ولم يبق لها أثر ظاهر فى حياته !... طغى الزمن ببحره الطامى على أحلام الماضى ، واختفت صورة « سنية » من رأس « سليم » .ومع ذلك ، فهو انبحث اليوم فىأغوار، قلبه عن خير ساعات حياته لما وجد أحلى ولا أشهى من تلك اللحظات ، التى كانت تطير هباء فى جلوس طويل ، بين اليأس والرجاء ، شاخص الابصار الى نافذة سنية !... ذلك الانتظار الحلو المر ، انتظار شىء جميل يرجو أنيحدث

ولن يحدث ، هو كل ما ظفر به قلب « سليم » ، وكل قلب على هذه الارض ، من احساسات عليا ، ماذا يهم مايتم من لقاء بعد ذلك بين حبيبين ؟ ... ان خفقــة القلب التي كانت تهز كل كيان « سليم » كلما خطف بصره خيال امرأة خلف المشربية ، وذلك الصبر الطويل على القهوة فى انتظار هذا الخيال ، هو كل جمال الحب ! ...

واسترسل « محسن » فى تصوراته وتذكاراته ، فنسى « اندريه » وأدرك الفرنسى القنوط ، فرفع يده فى حركة عصبية :

ـ لا ! ... حقيقة لا ... انى لا أستطيع أنأنفقعمرى جالســا هكذا ... ان الزمن شيء لا تعــرفونه أنتم معشر الشرقيين ، ولا يعنيكم أمره ! ..

فقال محسن :

ـ لقد تحررنا منه ! ...

فحملق « أندريه » فى « محسن » مليا ، ثم صاح :

ـ آه ، أيها الشرقيون ... أأنتم بلهاء أمأنتم حكماء؟ .. هذا ما يحير ! ...

ـ تلك عبقريتنا !



طريق الأمل

الفصل السادس

يروى الجاحظ : أن رجلا دميما ، تزوج أعرابية حسناء ، هامت به ، فسئل فى ذلك ، فقال : « قرب الوساد ، وطول (١) السواد » !...

ذكر « محسن » تلك الكلمة ، وهو جالس يرمق أعمدة « الاوديون » من مكانه بالقهوة ذات صباح ، فاهتز فى كرسيه ولمعت عيناه فرحا ، فقد وجد السبيل الذى يسلكه مثله ... انه يعرف نفسه ، فهو كصندوق مقفل غير مطعم بذهب ولا بفضة وغير موشى بألوان ولا برسوم ، ولا تبهر هيئته ولا تغر . ولكن قرب الجوار قد يحمل الصادف عنه، على النظر اليه واستطلاع ما فيه ، وهو ان فعل فلا شك واجد فى قلبه بعض تلك اللآلىء ، التى يبحث عنها الناس، ولكن كيف يدنو منها دنوا متصلا ، وهو غير قدير على أن يذهب اليها الآن ، ليقرئها السلام ، وكيف يجد « قرب الوساد ، وطول السواد » مع هذه ؟ وهو لايستطيع ان يظفر من وقتها بخمس دقائق ؟ وتذكر ـ عند ذاك ـ شارع سلامة بالقاهرة ، حيث كان يقطن منذ أعوام الى جوار « سنية » . حقا لو لم تكن يد القدر قد وضعت مسكنه الى جانب مسكنها، لما كان لتلك الفتاة مكان فى حياته يوما ما !... نعم ، لا شىء اليوم ، يستطيع أن يخرجه من هذا اليأس ، غير قرب

---

(١) المعنى طول الجوار ، وطول الليل ـ أى طول الزمن

السكن والجوار « طول سواد الليل ، وبياض النهار» !٠٠٠ ولكنه لايعرف أين تسكن ؟٠٠٠ وكيف تسكن ؟٠٠٠ أبمفردها ؟ هذا هو الحلم الذهبي !٠٠٠ لا ، هذا مستحيل ان القدر لأقسى من أن يظفره بهذا الحلم ٠٠٠ انها لا شك تقطن مع أهلها !٠٠٠ ومع ذلك ، ماذا يعنيه من هذا الامر؟ انه راض بالقليل ، يكفيه منها مجرد الشعور ، فى كل حين، أنها هى جارته !٠٠٠ بقى عليه أن يعرف مقر سكنها،وهذا ميسور ، ما عليه الا أن يتبع خطاها ، وهى خارجة من المسرح فى المساء !٠٠٠ هنا وثب « محسن » وكأن الأزمة قد انفرجت ، فهومنذ اليوم ، لن يتخذ القهوة مطارا لخيالاته المحلقة ، بلا جدوى ، فوق هذا المسرح!٠٠٠ولكنه سينشط، ويسير فى طريق الامل ، على هدى من أمره !٠٠٠ وفرك يديه ليدفئهما من البرد ، ومسح معطفه وقبعته من رذاذ المطر الذى أصابهما ، وقام يمشى فى الطرقات ، يقتل النهار فى انتظار المساء ، متصفحا : تارة وجوه حوانيت الكتب ، وتارة « اعلانات » المسارح الغنائية على الحيطان ، وحفلات « الموسيقى السانفونية » ، انه حتى اليوم لم يكن قد عرف موسيقى « بيتهوفن » معرفة كاملة ، فان الحفلات السانفونية القليلة التى حضرها لم تعقد بعد أسباب الالفة بينه وبين ذلك القلب الكبير ، ولم يقنط الفتى !٠٠٠ فهو يعلم أن الآلهة لا تكشف سرها لأول قادم ، وأن الملوك والعظماء لايظهرون لكل من طرق أبوابهم ، ـ انما ينبغى الصبر الطويل على الجلوس بأعتاب الهياكل وأبواب القصور ، والتوسل بالرغبة الصادقة فى الوصول ، فان الصبر فى الفن وفى الحب هو مفتاح الطريق !٠٠٠ووقع نظر «محسن» على برنامج حفلة موسيقية تعزف فيها السمفونية الخامسة « لبيتهوفن » ، تبتدىء بعد الظهر ، وتنتهى فى المساء الباكر ، فما تردد وأزمع الذهاب ٠٠٠ وجاء الظهر فتغدى فى مطعم صغير ، ثم أسرع الى مسرح « شاتليه » ، ليصغى

الى ذلك الرجل الذى أصغت اليـه أجيال من البشر !...
هنالك وجد الفتى المسرح يعج بالناس ، فاتخـذ له مجلسا متواضعا فى أعلى المكان ، وجعل يشاهد ، من عل ، ذلك البحر العجاج من نساء ورجال فى القاعة والشرفات !...
ولم يمض قليل حتى ظهر الموسـيقى « جابرييل بيرنيه » ، رئيس الفرقة : بعصاه الصغيرة ، ولحيته البيضاء القصيرة!
... فسكن الضجيج فجأة وارتفعت الايدى بالتصفيق ، ثم خيم على المكان سكون قدسى كسكون المعابد ، وشعر «محسن» بالخشوع الذى خامره فى الكنيسة ذلك اليوم ، وتحركت يد الاستاذ بالعصا ، فاذا «بيتهوفن» يتكلم بلغته السماوية، قوية أول الامر فى ذلك الـ « اليجرو » الجليل ، حلوة بعد ذلك ، كأنها أصوات الملائكة الصافيـة : فى الـ « أندانت » الهادئة ، ثم فياضة بالسرور الداخلى : من ذلك الـ «سكرتزو» المشرق ، الى أن تنتهى منه الى ذلك الفرح المتفجر : من أضواء أنغام الـ « برستو » الاخير !...

نعم ، ان هو الا وحى السماء يتكلم ، بمختلف المشاعر العظيمة التى رفعت الانسانية الى هـذه المرتبة !... لقد بدأ « محسن » يدرك ويحس حقيقة تلك الكلمة التى قرأها فى « نيتشه » : «كل عواطف البشرية السامية فى السنفونية الخامسة !... »

وترك « محسن » المسرح وهو شارد اللب شـأنه شـأن بقية الناس !... وما زالت نفسـه هائمـة فى ذلك الجـو العلوى !... وخرج الى الطريق !... فاسـتقبله الهواء البارد ضاربا وجهه ، فعادت فى الحال اليه نفسه ، ونظر حوله : فاذا الظلام ينبئه أن الموعـد قـد قرب ، فأسرع فى المشى الى « الأوديون » ، ووقف ببابه مستخفيا وراء عامود يرقب خروج الحسناء !...

دقت الساعة العاشرة ، فأقفل شباك التذاكر ، وخرجت

الفاتنة تتهادى ، كالغزال الذى وصفه اسحق الموصلى بقوله:
شادن لم ير العراق وفيه
مع ظرف العراق دل الحجاز

وعرف « محسن » هذا الشادن من مشيته ذات الدل ، قبل أن يرى فى الظلام وجهه ، فاختلج قلبه ولم يتحرك ، وابتعدت صاحبته ... وهمست اليه نفسه : أن انطلق ، خشية أن تختفى عن نظرك !... فأسرع خلفها وهو كالخائف ، الى أن بلغت سلم « المترو » الارضى ، فنزلت الى المحطة بعد أن ابرزت لعامل الباب تذكرة من دفتر معها، وما ان وصل « محسن » واتجه الى شباك التذاكر ، وابتاع تذكرة ، ودفع قطعة فضية ، واسترجع بقيتها ، حتى كان القطار قد أقبل ، ومضى بالفتاة ، وهو ينظر فاغرا فاه خائب الأمل !... وثاب الى رشده بعد قليل ، فقال لنفسه : « لم احسب حساب دفتر التذاكر الذى معها ! بالطبع ينبغى أن يكون معى مثلها هذا الدفتر ، وهى التى تقطع عين الطريق ، آتية غادية مرتين فى اليوم !... لا باس !... لا فائدة من الحزن والندم ، غدا أعيد الكرة بعد أن أعد عدتى !.. وجاء الغد فحصل على دفتر تذاكر فى الدرجة الثانية ، وانتظرها ثم اقتفى أثرها حتى المحطة ... وجاء قطار « المترو » فاندفع هو الى عربة فى الدرجة الأولى ... وسار القطار ولا اتصال بين العربات . والمحطات كثيرة ولم يعرف فى أيتها نزلت الفتاة !... وضاع أثرها أيضا منه فى هذه المرة ، فسخط وثار على نفسه صائحا : انها الخيبة والبله بعينه !... الا أستطيع ان أقتفى أثر انسان عشرة أمتار ؟!... ثم هدأ وابتسم وقال كالحالم : « ما كنت أعتقد ان مهنة « البوليس السرى » بهذه الدقة والصعوبة !...

غير أن هذه التجارب الخائبة قد نفعت الفتى فى اليوم

الثالث ، فقد احتاط للأمر من كل جانب ، ولم يغفل عن الفتاة طرفة عين ، وصعد معها فى عربة واحدة ، وجعل يراقبهما عن كثب دون أن يظهر لعينيها حى بلغ « المترو » محطة « بورت دى ليلاس » فنزلت ، فاسرع ونزل خلفها ! ... وسارت فى طريق طويل ، تنبت على جانبيه أشجار الزيزفون والكستنباء ، فتابعها متواريا ، بين لحظة واخرى، خلف جذوع الأشجار ، الى أن بلغت فندقا يدعى « فندق زهرة الأكاسيا » فدخلت ...

لم يفعل « محسن » شيئا بعد ذلك ، غير أنه عاد أدراجه وهو لا يمشي على الأرض ... ولكنه يطير راقص القلب ، فقد عرف منزلها !...

وفى صباح الغد نهض « محسن » مبكرا ، وفتح حقائبه ، وحشر فيها ثيابه وكتبه حشرا، وودع المرأة العجوز الدهشة على عجل !... وأعطاها رسالة سريعة ، كي تسلمها الى « اندريه » وزوجته ، ووضع أمتعته فى « تاكسى » ، وهو يقول للمرأة العجوز :

ـ قبلى عنى الصغير «جانو» !... غدا يخبرك «أندريه» عن سر هذا كله ... الى اللقاء !.. والتفت الى سائق السيارة وهمس : « الى « بورت دى ليلاس » فندق زهرة الاكاسيا » ! ...

وماكادت تختفى السيارة حتى ثابت العجوز الى رشدها، وقالت متنهدة :

ـ هذا الذى كنا نحسبه عاقلا ؟!..

□

كانت السيارة تسابق الريح ، وقلب « محسن » يسابق السيارة ، وهو كأنه قد ظفر بايوان كسرى ! .. ما كل هذا الفرح ؟ ... ألأنه رآها تدخل فندقا ؟! ... واذا ظهر

بعد هذا كله انها لاتقطن هذا المنزل، وانها ذهبت زائرة ، أما كان ينبغي له أن يتريث ، ويستوثق من الأمر ، قبل هذا الركض الجنوني بأمتعته ؟! . .

هنا اصفر وجهه قليلا ، وخشي ان يكون قد فقد اثرها ايضا هذه المرة ، غير انه لم ير الا أن يمعن في السير ، وان ينزل هذا الفندق، فقد فاتأوان الرجوع، ووقفت السيارة بباب الفندق وانزلت الأمتعة وقادته المديرة الى الحجرة رقم ٤٨ في الطابق الخامس .

وكان كل ما يطمع فيه « محسن » وقتئذ ، ان يعرف هل تقطن هنا حقا صاحبته ؟ ... وفي أى طابق واى حجرة ؟... ولكن كيف يوجه السؤال وهو لا يعرف اسمها ؟... ودخل الفتى حجرته ، فألفاها صغيرة نظيفة، ذات نافذة تطل على فضاء ، ـ فهذا الحى هو طرف قصى من أطراف باريس ، وباب من ابوابها ـ كما الفى مطبخا صغيرا ملحقا بالحجرة ، معدا بأحدث معدات تهيئة الطعام، من موقد وفرن صغير ، يشعل بغاز يأتى فى انابيب ، الى ادوات لشواء اللحم ، وخزائن لوضع الأوانى ، وحوض ماء ، فهذا الفندق معد لسكن الأسر الفقيرة ، وكل حجرة بملحقها معدة ، كأنها مسكن مستقل !... .

ولبث « محسن » فى حجرته ذلك اليوم ، يشتغل باخراج امتعته وكتبه ، وتنظيم أمره فى تلك الحجرة ، وهو يقول فرحا : « لقد اصبح لى مطبخ ، انى سأحتاج اليه من غير شك أيام العسر والافلاس ، فان اكلة فى المطعم تنفق على هذا المطبخ البسيط ثلاثة ايام !... »

نام « محسن » ليلته الاولى فى ذلك المقر الجديد نوما ثقيلا ، فلقد قرأ البارحة كثيرا ، وتأمل كثيرا ... وهو ـ اذ يفعل ذلك ـ لا يستيقظ دائما قبل التاسعة ، ولكنه فى هذا الصباح نهض قبل السادسة وثبا من فراشه على صوت

ناتن ، يغني كأنه طائر جميل هذه الأغنية المشهورة فى رواية « كارمن » :

الحب طفل بوهيمى ! ..
لا يعرف أبدا قانونا ! ..

فأسرع الى النافذة ، وبحث عن الصوت ، فاذا فتاته فى « روب دى شامبر » نسائى من الحرير الأبيض ، تنظم « ازهار البنفسج » فى أصص ، على حافة النافذة التى تحت نافذته !... هى ؟... هنا ؟... تعيش فى حجرة اسفل حجرته ؟!.. وثب قلب « محسن » ، ونبض نضات ، خيل اليه انها سمعتها ، ولكنها مضت فى غنائها :

« اذا لم تحبنى فانا أحبك
واذا أحببتك فالويل لك ! .. »



الحجرة رقم ٣٨

الفصل السابع

اسرع « محسن » وارتدى ثيابه ، ووقف بباب الفندق ينتظر خروجها ، فهو قد ادرك انها لا بد خارجة بعد قليل ! ... وهو يعلم ان شباك تذاكر « الاوديون » يفتح فى الساعة الحادية عشرة، ولم يخب ظنه ، فقد سمع صوتها بعد لحظة وهى تنزل السلم سائلة صاحبة المنزل عن بريد الصباح ، فاستعد وضبط أعصابه ، وما كادت تدنو منه حتى تقدم اليها ، ورفع قبعته السوداء ، فرفعت أهدابها الجميلة وسددت اليه عينيها الفاروزيتين ، فأرتج عليه ، ولم يعرف كيف يبدأ الكلام !... وخيل الى الفتاة انها رات هذا المعطف ، وهذه القبعة السوداء ، من قبل ، وبدا على وجهها انها تذكرته !... فما ان رآى « محسن » منها ذلك حتى قال من فوره :

ـ نعم ، انا هو !...

فابتسمت قليلا ، غير انها قالت :

ـ هو من ؟ ...

فخجل الفتى وارتبك ، ورات الفتاة خشونة ردها عليه فاستدركت :

ـ ان لم اخطىء الظن ، فأنت ياسيدى « زبونى » !! ...

ـ نعم ، انا هو « زبونك » الدائم !... ولى الشرف أن اكون كذلك !...

ــ وما جاء بك الى هذا الحى الذى لا يعرفه الأجانب ؟.. معذرة من فضولى !!! .

ــ فضولك يا سيدتى هو كل ما أرجو وما أحب ... جاء بى الى هذا الحى ... الفضول !...

فابتسمت وقالت :

ــ ايضا !..

ــ بل شيء أكبر جدا من هذا ...

واحمر وجهه قليلا ، وخشى أن يكون الموقف قد طال ، وأنه قد قطع عليها السير ، فأبدى لها أسفه سريعا ... وتنحى عن طريقها واستأذنها فى أن يسير الى جانبها قليلا حتى يتم حديثه ... فأذنت له ومشيا الى محطة «المترو» وهو يقول :

ــ انى جئت اليك احجز محلا لمشاهدة قصة هذا المساء ! ...

ــ شباك التذاكر ليس هنا !... انه هناك فى المسرح !..

ــ وما يمنع أن يكون فى اى مكان تحلين فيه ؟!... هو الذى يجب أن يتبعك !... ككل شيء وكل انسان !...

فالتفتت اليه تستجلى أمره ، وكأنما ادركت قليلا حقيقة غرضه :

ــ كيف عرفت انى اقطن هذا الحى ، وهذا الفندق ؟!..

ــ عجبا !... أتقطنين هذا الحى ، وهذا الفندق ؟!!... اذن انت تقطنين هذا الحى وهذا الفندق !..

فنظرت اليه فاحصة ، كمن ينظر الى مخلوق عجيب ، ولكنه مضى يقول :

ــ وافرحتاه !.. انا ايضا اقطن هذا الحى ، وهذا الفندق !...

فقالت فى لهجة المستريب :

ـ منذ زمن طويل ؟!..

ـ منذ .. لست أدرى .. نعم ، منذ زمن طويل !..

فلم تنبس الفتاة ، وساد بينهما صمت عميق ... وشعر «محسن» ببرد يكتنف الموقف وراى محطة «المترو» قد اصبحت منهما على قيد خطوات ، وخشي ان تضطره هى فجأة الى الافتراق عنها ، ولم يقل بعد شيئا يثبت الى الأرض هذه الصلة الطائرة ... فاندفع يقول فى غير تبصر :

ـ ما أجمل هذا الصباح !.. لقد استيقظت على أغنية « كارمن » تتصاعد من نافذة تحت نافذتى !.. لكن ... بأى صوت وأى غناء !! ...

وكأن الفتاة لم تسمع شيئا ، فقد لزمت الصمت، وكانت قد دنت من سلم « المترو » الارضي . فالتفتت الى محسن ومدت يدها اليه قائلة ــ فى صوت كله تحفظ ، كأنها تخاطب شخصا لا تعرفه ، ولا تحرص على أن تعرفه :

ـ عم صباحا يا سيدى !...

وهبطت السلم ، واختفت فى لمح البصر ، تاركة الفتى فى مكانه ، كتمثال من الرخام قد غطاه الجليد !..

□

ثاب « محسن » الى رشده ، ولكن الدهش لم يفارقه ، لماذا تركته على هذا النحو ؟!.. أكان مسرفا فى حديثه ؟.. لكن لماذا ؟.. وماذا كان يجب عليه اذن أن يقول ؟!..

واسترسل فى التفكير برهة ، يقلب الأمر على وجوهه .. الى ان انتهى به حديث النفس الى شاطىء هادىء : الرجاء ، والرضى بما حدث حتى اليوم ، فان حياته منذ اليوم الى جوارها شيء ليس بالقليل ، بل انه الآن يستطيع ان يعرف منها الكثير ... يستطيع أن يعرف اسمها على الأقل ، وأن

يعرف مع من تعيش هنا !... ولم يفكر « محسن » أكثر من ذلك ، فقد جرى لساعته الى الفندق ، وصعد الى الطابق الرابع ، وبحث عن الحجرة التي تقع أسفل حجرته، وقرأ رقمها : « ٣٨ » ، ثم نزل فى الحال الى صاحبة الفندق، فحياها في ابتسامة رقيقة ، وحرك شفتيه مترددا لا يدرى بعد ، كيف يصل الى غرضه دون أن يبدو عليه شيء ، ولكن المرأة ابتدرته :

ــ اراض عن حجرتك يا سيدى ؟

ففتح هذا السؤال الطريق للفتى ، وقال :

ــ لا بأس بها . وان كنت أفضل الحجرة السفلى ؟...

ــ السفلى ؟... فى الطابق الرابع ؟... انها مشغولة يا سيدى !...

ــ تشغلها أسرة ؟! ...

ــ كلا يا سيدى بل آنسة بمفردها !...

فأخفى الفتى سرورا كاد يشرق به وجهه :

ــ بمفردها ؟! ...

ثم استطرد فى الحال :

ــ نعم !.. ان الحرب الكبرى قد جعلت الفتاة هنا كالشاب ، تسعى وراء رزقها بمفردها ! نعم !.. هذه الآنسة ، ان صدق ظنى ، فهى عاملة شباك التذاكر بمسرح الأوديون !...

ــ صدق ظنك يا سيدى !...

ــ نعم !.. انى أختلف الى الأوديون كثيرا .. هى ، ان صدقت ذاكرتى : « مدموازيل ... مارى » ؟! ...

فابتسمت المرأة ابتسامة ، لا أحد يدرى : ان كانت تنم عن خبث ومكر وادراك، أو انها لاتنم الا عن بساطة وملاطفة:

ـ خانتك ذاكرتك هذه المـرة ياسيدى ، انهـا تدعى « مدموازيل سوزى ديبون » !...

ـ « سوزى » ؟! ..

انزلق هذا اللفظ من بين شفتيه ، وهو فى نشوة من فرح داخلى يشبه الذهول ، وتنبه من فوره ، وضـبط نفسه ، والتفت الى المرأة وقال :

ـ اشكرك ياسيدتى على هذا الوقت الذى اضعته عليك ... اشكرك !...

ثم تركها وخرج الى الطريق سريعا يهمس :

ـ « سوزى » !...



أنبياء الشرق
وأنبياء الغرب

الفصل الثامن

انفق الفتى ما بقى من ذلك الضحى هائما على وجهه ، فى طرقات ذلك الحى ، جاعلا من شأنه البحث عن مطعم رخيص ، يلجأ اليه فى أيام الضنك ، وهى كل الأيام ، عـدا اليوم الأول والثانى من كل شهر ... وقد وجد ضالته فى شارع « مونيلمونتان » ! ... انها شبه « حانة » ، توسم فيها النظافة مع قلة النفقة ، فقد قرأ فى لوحـة من ورق « الكرتون » معلقة على بابها ، أن ثمن الاكلة الكاملة مـع زجاجة من النبيذ خمسة فرنكات بالتمام ، وكان الظهر قد اقبل ، واحس « محسن » الجوع ، فدخل ذلك المطعم ، واتخذ له مجلسا فى أحد الأركان ، وجاءه الغلام ، فطلب اليه شريحة من لحم الثور ، مشوية مع البطاطس ، واعتدل فى جلسته مطمئنا يفحص وجوه الحاضرين !.. انهم جميعا من طبقة العمال ، أولئك الذين ينبذون الشوكة والسكين ويقطعون الخبز واللحم بمدية الجيب !...

ولكن الفتى لم يأنف من تلك السواعد العارية ، والجباه المتصببة عرقا ، والثياب التى تقطر بؤسا ، فـ « محسن » لا يشعر دائما أنه فى مكانه ، الا بين أمثال هـؤلاء ، وهو يوم يدفعه الرخاء الى مطعم فاخر ، فانه يدخله دائما خائفا كالغريب ،وجعل الفتى يقضم رغيفه قضما فىانتظارالغداء، ويصغى فى أعماق نفسه الى تلك الرباعيـة من رباعيـات

« عمر الخيام » : « اذا أردت أن تعرف الصفاء والسلام ، فاحدب على تعساء الحيـاة ، أولئك الضعفاء الفقـراء الذين يرتعدون فى شقائهم ، عندئذ تظفر بالسعادة ! » ...

نعم انه فعلا يجد فى نفسه الآن شيئا من تلك السعادة الهادئة الصافية ، فى هذا المكان المتواضع ، وسمع حوارا على مقربة منه ، بين صاحب المطعم البدين ، وبين عامل من العمال شاحب الوجه حاد النظرات :

ـ لن أتناول اليوم لحما ، انى مريض !...

فقال صاحب الخان مشفقا :

ـ نعم !.. أرى ذلك ... انك تعيش وحدك فيما أعلم يا مسيو « ايفان » ...

ـ انى دائما وحدى فى الحياة !...

هذه العبارةالاخيرة استرعت التفات «محسن» ، لا لأنها ذات نغمحزين ، بللأن الفتى كان يتصور أنه ، هو وحده، الذى يحيا دائما وحده فى الحياة ... انه يعلم أن المعتزلة اليوم قليل ، ولكم يشعر بحب وتقدير لأولئكالذينلاتطيب لهم السكنى الا داخل أنفسهم ، ذلك أن قليلا من الناسمن يملك نفسا رحبة غنية يستطيعأنيعيش فيها ، وأنيستغنى بها عن العالم الخارجى ... انه يعتقـد دائما أن الزاهدين الحقيقيين ليسوا الا أناسا ، لهم نفوسكالفراديس ، تشقها الانهار،وتنيرها الشموس ، وتتلألأ فيها الكنوز ، فهى عالم من الفتنة والسحر ، لا نهاية لبدائعه وأسراره !...

وأبطأ طبق الحساء على جاره العامل المريض ، فأبصره قد أخرج من جيبه كتابا ، جعل يلتهم صـفحاته بدلا الطعام ، وود «محسن» لو عرف عنوان الكتاب !... ودفعـه حب الاستطلاع الى أن يميل بجسمه ويختلس النظر ، ففاجأته عين الرجل ، فارتبك الفتى وأشار الى الكتاب :

ـ معذرة هذا الفضول منى !··· انى أحب الكتب، لاشك انه كتاب لذيذ ···

فأرسل اليه الرجل نظرات عميقة ، ولم يقل شيئا، لكنه مد يده ، وأرى الفتى العنوان على الغلاف ، فاستطاع «محسن» أن يقرأ :

« رأس المال » : كارل ماركس !···

□

لم يمض النهار حتى نشأت صداقة وديعة بين «محسن» وذلك العامل الفقير ، وقد أنس أحدهما الى الآخر ، كما يأنس الغريب الى الغريب ، وهو الواقع · فهذا الرجل روسى، ترك بلاده منذ بضعة أعوام ، وهو أيضا من أولئك الذين يعيشون على القراءة والتفكير والوحدة ، وقد دعا الفتى الى حجرته الصغيرة ، التى يقطنها فى احدى دور العمال ·

فرأى «محسن» الكتب مكدسة فى كل مكان ، ولم يستطع « محسن » شيئا عن دخيلة الرجل ، لكنه أحس أن الرجل قد فرح بمعرفته فرحا عميقا ، فقد قال وهو يعد له الشاى، على موقد فى أحد الاركان :

ـ لكم أشعر أن وطأة مرضى قد خفت قليلا منذ لقائنا ، لست أدرى لماذا ؟ . . .

وقدم للفتى قدح الشاى ، وجلس هو على صندوق قديم من الخشب الابيض ، فقد أكرم ضيفه بالكرسى الوحيد فى الحجرة ، ورشف « محسن » رشفة وهو يقول :

ـ وانت يا مسيو « ايفانوفتش » ؟ الا تحب الشاى ؟

ـ انى أفضل جرعة من « الفودكا » ··· آه ··· ان هذا الشراب مع « تولستوى » ، هما كل ما أحب الآن من الروسيا !···

ولمح « محسن » بعض المرارة فى كلام الرجل ، فقال له فى سذاجة :

ـ كيف ذلك ؟ ان الروسيا الآن هى جنة الفقراء !...

فأجابه الرجل كالمخاطب لنفسه :

ـ أتظن ؟.. ان جنة الفقراء لن تكون على هذه الارض!..

وصمت الرجل قليلا ثم قام الى زجاجة «الفودكا» فتناول منها جرعة وهو يقول :

ـ أنت أيضا ممن يعتقدون فى هـــذه الخرافة : جنـــة الفقراء ؟!... انى فكرت فى أمرها كثيرا ، ومن ذا الذى لم يفكر فيها ؟.. تلك مشكلة الدنيا لم تحل : « وجود أغنياء وفقراء وسعداء وتعساء على هذه الارض » !... من أجل هذه المشكلة وحدها ظهر الرسل والانبياء ! ...

ـ يا مسيو « ايفان »...لست أرى رأيك فى أن المشكلة لم تحل !... ان الانبياء قد جاءوا من السماء بخير الحلول

ففكر الرجل قليلا ، ثم قال كالمخاطب لنفسه :

ـ أنبياؤكم أنتم ؟!... نعم هـــذا من الجائز !... ان الشرق قد حل المعضلة فى يوم ما ...هذا لاريب فيه ، ان أنبياء الشرق قد فهموا أن المساواة لايمكن أن تقوم على هذه الارض ، وانه ليس فى مقدورهم تقسيم مملـكة الارض ، بين الاغنيـــاء والفقراء ، فأدخلوا فى القسمة « مملـــكة السماء » ، وجعلوا أســاس التـوزيع بين الناس « الارض والسماء » معا : فمن حرم الحظ فى جنـة الارض ، فحقـه محفوظ فى جنة السماء !... هذا جميل!...ولو استمرت هذه المبادىء ، وبقيت هذه العقائد حتى اليوم ، لما غلى العالم كله فى هذا الاتون المضطرم ، ولـكن « الغرب » أراد هـو أيضا أن يكون له أنبياؤه ، الذين يعالجون المشكلة على ضوء جديد ، وكان هذا الضوء منبعثا هـــذه المـرة ، من باطن

الارض ،لا آتيا من أعالى السماء ••• هو ضوء العلم الحديث، فجاء نبينا « كارل ماركس» ، ومعه انجيله الارضى : «رأس المال » ، وأراد أن يحقق العدل على هذه الارض ، فقسم « الارض وحدها بين الناس ، ونسى « السماء » ، فماذا حدث ؟••• حدث أن أمسك الناس بعضهم برقاب بعض ، ووقعت المجزرة بين الطبقات تهافتا على «هذه الارض» !!••

وتأمل « محسن » قليلا هذا الكلام ، ثم قال كالمخاطب لنفسه :

ـ كمن يلقى تفاحة بين أطفال يتلمظون !•••

ثم عاد الرجل يقول :

ـ لقد ألقى قنبلة « المادية والبغضاء واللهفة والعجلة » بين الناس ، يوم أفهم الناس أن ليس هناك غير «الارض» ـ يوم أخرج « السماء » من الحساب ، لأن علم الاقتصاد الحديث لا يعرف السماء ! ... أما أنبياء الشرق فقد ألقوا زهرة « الصبر والأمل » فى النفوس ، يوم قالوا للناس : « لا تتهالكوا على الارض ، ليست الارض كل شىء ! ... ان هناك شيئا آخر غير « الارض » يدخل فى «التوزيع» ! ». آه ! ... ان أنبياء الشرق هم العباقرة حقا ! ...

وصمت الرجل قليلا ، ثم مضى يقول :

ـ ان روح «المسيحية» ، كما نبعت فى الشرق: هى المحبة ، والمثل الاعلى ، وروح « الاسلام » : الايمان والنظام . ومسيحية اليوم فى الغرب : هى « الماركسية » وهى كذلك : لها مثلها الاعلى ـ لا فى محبة الناس بعضهم بعضا ، وتبشير الفقراء « بمملكة السماء » ، وحضهم على اعطاء ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ـ بل باغرائهم بمملكة ، تقام على أنقاض طبقة ، وأشلاء طبقة ، ونصحهم بالهجوم على قيصر ، وأخذ ما لقيصر ! ... وان « انجيل » هذا الدين : كتاب « رأس المال » تجد أيضا فى بعض صفحاته تنبؤات مخيفة ،

كتنبؤات « يوحنا » فى رؤياه ـ ففيه توعد بانهيار هذا العالم ، وحلول عالم آخر قوامه العمال وحدهم !... اى اجسام تسير بغير رءوس فوق المناكب ؟ ! ... يا له من حلم مخيف ! ...

أما « اسلام » العصر الحديث فى الغرب : فهى « الفاشستية » ، وهى كذلك لها طابع الايمان والنظام !... ايمان لا بالله ، بل « بزعيم » من البشر ، ونظام لا يؤدى الى التوازن الاجتماعى بالتواضع والزكاة ـ انما هو نظام فرضته يد الارهاب ، ليؤدى الى مطامع الاستعمار ، والوثوب على الضعيف من الشعوب ! ... ولهذا الدين أيضا « كتابه » وخطبه « المنبرية » الملتهبة ، لا بحرارة عقيدة سماوية ، ولكن بحرارة قوة حيوانية ، وشراهة دموية ! ... آه أيها الصديق ... تلك هى الديانات التى استطاع الغرب أن يخرجها للناس ـ يوم أراد أن يزاحم الشرق ويخرج للعالم أديانا ! ...

فرفع « محسن » راسه بعد اطراق طويل ، ثم قال :

ـ يدهشنى منك هذا القول يامسيو «ايفان» ، وأنت من العمال ؟ ! ...

ـ نعم ، أنا من العمال ، ومن الفقراء ... لكن ، لى من سوء الحظ رأس يفكر ، انى أعرف أن وعود أديان «الغرب» الجديدة كلها ... ان هى الا تغرير بالعمال والفقراء ... ان « الماركسية » و « الفاشستية » قد أخذتا عن أديان « الشرق » طرقها وأساليبها ، وفهمتا جيدا أن كل خطة النبى هى استمالة الساخطين والمتذمرين والمعوزين ، وهم الكثرة الغالبة !... هكذا فعل « عيسى » و « محمد » !... هل تبعهما ، أول الامر ، غير العبيد والأرقاء والفقراء والضعفاء ؟ ... ذلك أن طبقة الراضين والموسرين ليست فى حاجة الى أن تتبع أحدا ! ... وهى مع ذلك قلة نادرة ،

وسط خضم الدهماء ، فالدهماء هم سند الدين،وهم القوة فى كف النبى ! ... لقد ادرك ذلك جيدا انبياء أوربا فى العصر الحديث ودرسوا Technique النبوة على أيدى الاساتذة الشرقيين ، فبنوا كل شىء على أساس واحد : « الدهماء » ! ... وجعلوا يتنافسون فى ارضاء هذه الكتل الآدمية بالوعود : وعود واقعة قريبة الأجل ، « وهنا كل غباء هؤلاء الانبياء ! » ... ان التنافس بين الدينيين ليبدو لى شديد الخطر ! ... وانى لأتنبأ لك ، منذ الآن ، بوقوع نوع من « الحروب الصليبية » بين « الماركسية » و « الفاشستية » ــ تحشد فيها الدهماء ضد الدهماء ، وتتناثر فيها الجثث ، وتتطاير الأشلاء ... هذا كل مكسبنا ... انهم لن يبقوا لنا حتى على ذلك الوهم اللذيذ ، والعزاء الجميل الذى غمرنا فيه أنبياء الشرق الحقيقيون !

ــ اى وهم وأى عزاء ؟ ! ...

ــ جنة السماء ، ومملكة السماء ! ...

ــ اتسمى هذا وهما ؟ ! ...

ــ آه معذرة ... معذرة ! ... انك مؤمن ! ... ما أسعدك أنت ! ... وما أحسن حظك ! ...

هدية!

الفصل التاسع

خرج « أندريه » من العمل فى استراحة الغداء ، فوجد رسالة من « محسن » تنتظره ، فلم يدهش ، ان رسائل « محسن » اليه قد كثرت ، منذ أن غادر منزل الاسرة فى « كوريفوا » جاريا خلف قلبه

فض « أندريه » الرسالة وقرأ :

« عزيزى « أندريه » !...

« لم أزل أستيقظ على غنائها ، لكن قد حدث أمر جلل هذا الصباح ، بينما أنا قرب النافذة ، أصغى اليها خفية، اذا الباب يطرق ، واذا « الغسالة » قد حملت الى ثيابى النظيفة ، وقدمت الى ورقة الحساب : عشرة فرنكات،فلمعت فى ذهنى حينئذ فكرة أعجبتنى ، وأرجو أن تعجبك ، ذلك انى تناولت الورقة وسطرت فى ذيلها : « سيدتى !... لا اجد معى الساعة نقودا ، فاذا تفضلت واديت عنى الحساب فانى لا أنسى لك هذه اليد ، ولك جزيل الشكر سلفا مع احترام المخلص : جارك رقم ٤٨ » ودفعت الورقة الى الغسالة، وأحلتها على الحجرة السفلى ، التى تقطنها جارتى «مدموازيل ... س » ...

ومضت الغسالة بالفعل ، وبقيت أنا أرتجف قلقا ... أتراها تؤدى عنى ؟... واخجلتاه اذا رفضت !... واذا قبلت فما يكون معنى هذا ؟...

« ينبغي أن أبادر فأبشرك ، لقد عادت الغسالة الى بعد هنيهــة ، تقول في ابتســـام : ان « مدموازيل ... س ، جارتي ، ـ قد دفعت في الحال ، دون أن تنبس بلفظ !..
« ماذا تقول في كل ذلك ؟...

محسن ... »

ابتسم « أندريه » وطوى الرسالة ، وأشعل لفافة تبغ ودخن قليلا ، ثم أخرج ورقة وكتب :
« عزيزى محسن !...
« ماذا أقول في كل ذلك ؟... أقول : ان عهدي بالمحبين أن يظهروا دائمــا أمام الفتيات ، بمظهر النعمـــة واليسر والرخاء ، وأن يكونوا هم على الاقل الدائنين وقت الاقتضاء ، ولكنك قد عكست الوضع ، وأصبحت مدينا لفاتنتك بكل شيء ، أي : « بالقلب وبفاتورة الحساب » ... ان مسألة التجــائك في الاقتراض الى «مدموازيل ... س » ، ولمـا تتوثق بينكما المعرفة ، لغاية في الجرأة !... واني لأعجب جدا لهذا الحادث ، وأرى فيه فجر عهد جديد في تاريخ الغرام !...

أندريه ... »

مرت أيام بعد ذلك ، والفتاة تصادف الفتى ، تارة بباب الفندق وتارة في المصعد ، ولاغرابة في ذلك ، فهما متحدان في المسكن إنما الغريب في الامر أنه منذ أن أدت عنه الحساب لم يعد يقبل عليها ، ذلك الاقبال الذى كانت تراه منه ، ولم يعد يحييها الا تحية مختصرة ، واذا جمعهما المصعد ، فهو مطرق لايريد أن يتكلم ، ولا أن يشير بحركة تنم عن اهتمام لأمرها ، هو الذى كان ينتظر منــه أن يبادر فيشكرها على عطفها الكريم .. انه لم يشكرها ، بل انه لم يشر قط الى ما حدث بذكر أو تلميح ، وانفردت « سوزى » في حجرتها ذات مساء ، وجعلت تفكر قليلا في أمر هذا الفتى الغريب:

أهو شرقى : متوحش ، لايعـرف الآداب واللياقـة ؟!٠٠٠
ولكن الامر فى ذاته أبسط من أن يحتاج الى معرفة بالأدب أو اللياقة ، ولا يمكن أن يكون ذلك الفتى جاهلا ، انما هو تصرف مقصود ، لماذا ؟٠٠٠ هذا ما لم تهتد اليه الفتاة٠٠٠ ان هذا الفتى غريب الاطوار ٠٠٠ هـذا كل ماتستطيع آن تفهمه !٠٠٠

□

لم يكد ينتهى الاسـبوع ، حتى تلقى « أندريه » هـذه الرسالة :

« عزيزى « أندريه » !

« الآن آن الأوان أن أفى بدينى ، ولا يليق أن أرد اليها عشرة فرنكات ، انما يحسن بى أن أقدم اليها هدية ٠ ماذا ترى أن تكون هديتى اليها ؟٠٠٠ أشر على سريعا !٠٠٠
محسن ٠٠! »

فأسرع الفرنسى وأرسل الجواب :

« عزيزى « محسن » !

« ان «باريس» كلها لم تخلق الا للنسـاء ، وكل تجارة باريس هى فى الهدايا التى تقدم الى النساء ٠٠٠ ما عليك الا أن تمشى قليلا فى أى شارع من شوارع باريس ، فانك واجد عشرات الحوانيت، التى تعرض ما تشتهى لصاحبتك من حقائب اليد ، وصناديق « البودرة » والقبعات والجوارب والعطور والزهور ، وقد مضى نصحنا لك فى هذا ولم تقبل النصح !٠٠٠
أندريه ٠٠٠ »

قرأ محسن هذه العبارة ، وردد كالمخاطب لنفسه ، فى غير اقتناع :

حقائب يد ، وصناديق « بودرة » ، وزهور وعطور!٠٠٠

أشياء لا معنى لها ، انك أحمق يا مسيو « أندريه » !...
ثم مزق الرسالة ، ووضع القبعة السوداء على رأسه، ونزل الى الطريق هائما على وجهه ، طول يومه ، في شوارع باريس ، يفكر ويبحث عن الهدية ، دون أن يدخل حانوتا، أو يرسل عينيه الى وجه متجر ، فهو لم يعتد النظر إلا الى واجهات حوانيت الكتب !... وقادته قدمه مصادفة ،آخر الامر ، الى سوق الطيور في الضفة اليمنى من نهر السين! ... وقرع سمعه صوت ببغاء صغير ، ينادي المارة بصفيره وكلماته الملقنة ، فرفع «محسن» بصره ، وتفكر هنيهة ، ثم دخل الحانوت لوقته وابتاع الببغاء ، وخرج حاملا قفصا ، ينبعث منه صفير وضجيج ، ومشى به مشية المنتصر الذي ظفر بضالته ! ... ولكنه لم يسر خطوات في الطريق ، حتى وجد القفص الذي في يده قد تبعته القطط والكلاب الضالة ، واذا منظره ، وهو حامل الببغاء ، وكلاب الحي خلفه ، قد بدأ يستلفت أنظار المارة !...وخشي أن يجتمع حوله العاطلون والصغار ، فاستأجر سيارة حملته مع الهدية الى الفندق ... وما ان أوى « محسن » الى حجرته حتى خلع ثيابه على عجل ، وجلس الى ببغائه طول الليل ساهرا ، يلقنه كلمات وعبارات ... الى أن رضي عن هذا التلميذ الصغير ، فوضع في عنق قفصه حبلا رقيقا ، وفتح نافذته، وأدلى بالقفص في الفضاء الى أن حط على حاجز الفتاة ، ثم جعل يناجيه ، مناجاة « حافظ الشيرازي » للببغاء في قصيدته التي قال فيها :

« أيها الببغاء !... أيها الناطق بالأحاجي احرص الى الأبد على ريشك زاهيا في لون الياقوت ، وعلى قلبك فياضا بالمرح !... آه أيها الحظ !... اسكب على وجوهنا ماء الورد ، ولا تبح للصاحي بأسرار النشوة !... نعم ، ان الحكمة هي الثراء الحقيقي ، ولكن .. كم تساوي الى جانب نظرة الحب ؟!... »

استيقظت « سوزى » في الصباح ، واتجهت الى نافذتها مترنمة كعادتها ، وما كادت تفتحها حتى رأت نفسها أمام ببغاء فى قفص ، فدهشت !... ثم أبصرت الحبـل المدلى ، فادركت من أين هبط ، فرفعت عينيها الى الطابق العلوى ، واذا الفتى فى نافذته يبسم لهـا كأنما كان في الانتظار ، وحياها تحية الصباح فردت عليه التحية باسمة،ثم أشارت الى القفص قائلة :

ـ لمن هذا ؟...

ـ لك !...

ـ لى أنا ؟ شكرا يا سيدى ، لكن لماذا ؟...

ـ هذا ما استطعت أن أقدمه اليك ، اعترافا بجميلك ، فارجو أن تقبليه منى !...

ـ ما أجمل هذا الببغاء ! ما اسمه ؟ ! ...

ـ اسمه ... « محسن » ! ...

ـ محسن » ! ...

وما كادت الفتاة تنطق هـذا الاسم حتى صـفر الببغاء وصاح :

ـ أحبك ، أحبك ، أحبك !...

فضحكت « سوزى » وقالت :

ـ عجبا ... من لقنه هذه الكلمات ؟...

فأجاب الفتى لفوره :

ـ لا أحد ... فى «عينيه نظر» هذا كل ما فى الامر ! ...

فابتسمت الفتاة لهذا الجواب . وقالت :

ـ أكرر لك شكرى يا ... مسيو ...

ـ أتسمحين أن أقدم اليك نفسى ... ولو أن التقدم من

هذه النافذة العالية لايسمى تقدما ••• فالاصح أن أقول : ان ألقى اليك بنفسى !•••

فضحكت الفتاة وقالت :

ـ يسرني بالطبع ذلك، غير أنى لا أضمن لك الوصول سالما الى نافذتي ، فألقى باسمك وحده الآن فهو يكفى •••

فقال الفتى :

ـ اسمى « محسن » !•••

فنظرت اليه نظرة استغراب وقالت :

ـ كالببغاء ؟!•••

ـ نعم !•••لى الشرف أن يكون اسمى كاسم ببغائك !••

فابتسمت ولم تجب ، وظن محسن أنه قد تحدث اليها أكثر مما ينبغى ، وخيل اليه أنه ربما أثقل عليها ، وخشى أن يزيد فى الكلام ، فتبدر بادرة تمحو من شفتيها هذا الابتسام ، فحياها سريعا باشارة خفيفة ، وابتعد عن النافذة مختفيا لفوره عن أنظارها ••• ثم جلس الى مكتبه يتأمل الامر•••عجبا !••• مامعنى الجلوس ؟••• وفيم التأمل؟! ••• لقد كانت أمامه ، وكان بينهما حديث•••لماذا تركها؟ ••• ألا يجدر به أن ينهض من مقعده ويعود اليها ؟••• ولكن نافذتها كانت قد أغلقت !•••



مملكة الخيال

الفصل العاشر

شعر « محسن » حوله ببرد الوحدة . وأراد أن يحادث أحدا ، أو يذهب لمقابلة أحد ، غير أن الوحيد الذى يستطيع أن يفضى اليه بشىء هو « أندريه » !... انه ليس مجنونا حتى يخبر «أندريه » فيسخر من خيبته.ويلقى على مسامعه مرة أخرى : « ان المرأة تكسب بالواقع لا بالخيال » آه ، الواقع ! الواقع هو ... انه هوالواقع فى حب لا أمل فيه، ولا يجد الى جانبه حتى من يعزيه!...وتذكر «ايفانوفتش» .. نعم ، لعل ذلك الروسى ، المنفى مثله فى مجاهل «العزلة»، يستطيع أن يسرى عنه الساعة ، بحديثه الغريب، واطلاعه، وتأملاته ...

وكان المساء قد أقبل ، وأدرك أن صاحبه لابد قابع فى حجرته الحقيرة ، تحت سقف ذلك المنزل العتيق ، فذهب اليه من فوره فوجده كما توقع أن يراه، جالسا فوق صندوقه الخشبى ، كما يجلس الثراة فوق « الشيزلونج » ! .. وبين يديه كتاب ضخم ، ينهل من صفحاته ، كما ينهل الالمانى من كوب « جعة » ذى زبد !...

فما ان رفع رأسه ، ورأى الفتى ، حتى أشرقت أساريره المظلمة وانتعش قليلا وجهه الذابل ، وطرح الكتاب من يده، ونهض يهيىء للزائر مكانا خليقا بجلوسه ، فمنعه «محسن» باشارة سريعة ، وبادر فقعد مثله على حافة الصندوق ، وصمت قليلا . وبدا عليه أنه يريد أن يقول شيئا فى نفسه،

ولم يتردد طويلا ، فقد انفجر على الرغم منه :

ـ يا مسيو ايفان !... انى لست سعيدا ، ولعلك انت أيضا كذلك !... ان سر تعاستنا هو أننا نعيش فى هذه الحجرات المغلقة ... اننا نجهل الواقع وطرائقه المباشرة ... لا شىء يكتسب بالخيال فى هذه الحياة !...

فهز الروسى رأسه ، وابتسم ابتسامة ساخرة وقال :

ـ من علمك هذا أيها الشرقى ؟! ...

ـ هى البداهة ، ولكن أعيننا هى التى لا ترى !...

ـ لا ، لست أصدقك . ذاك كلام لاينبغى أن يقوله مثلك ...

فمر طيف « أندريه » برأس « محسن » لكنه لم يقل شيئا ومضى « ايفان » يقول :

ـ الواقع والطرق العملية المباشرة ؟!... تلك بالضبط كل حياة الحيوان!...الفاصل الوحيد بين الانسان والحيوان هو «الخيال» . ان اليوم الذى يستطيع فيه الحيوان أن يحيا دقيقة واحدة ، خارج الواقع والمادة ، اليوم الذى يلجأ فيه الحيوان الى طرق معنوية غير مباشرة للوصول الى غاياته ، اليوم الذى يستطيع فيه الحيوان أن يمضى الليل « يحلم » فى غابته المقمرة بدلا من مطاردة الفريسة ، ـ هذا اليوم يكون آخر عهده بالحيوانية . « الحلم » هو العالم العلوى الذى لايدخله حيوان !... « الخيال » هو تاج السيادة والسمو الذى تميز به الانسان !...

وسكت لحظة ، فقال محسن :

ـ نعم ، ولكن « الواقع » ...

فانطلق الروسى :

ـ « الواقع » ؟... الواقع ... انى لا أحترم الآن كثيرا هذه الكلمة !...

ومر طيف « أندريه » مرة أخرى برأس الفتى...حقيقة

ان صديقه الفرنسى هو الذى يذكر دائما هذه «الكلمة » ، ولكن هذا الروسى الثائر ، الواقف فى منتصف الطريق بين الشرق والغرب ! ••• من يضمن لمحسن أنه على حق فى كل هذه التصورات ؟ ••• وبدأ الشك على وجه الفتى ••• وقرأ « ايفان » ما يجول بخاطره ، فصاح به وهو يهزه من كتفيه:

ـ آه ! ••• « الخيال » ••• هو ليل الحياة الجميل ! ••• هو حصننا وملاذنا من قسوة النهار الطويل ••• ان عالم « الواقع » لايكفى وحده لحياة البشر ! ••• انه أضيق من ان يتسع لحياة انسانية كاملة ! ••• نعم ، مرة أخرى أقول لك ، انى شديد الاعجاب بأنبياء الشرق ! ••• ان المعجزة الحقيقية التى جاءوا بها : هى أنهم قدموا للناس عالما آخر عامرا بسكان من ملائكة ذوات أجنحة جميلة بيضاء ، زاخرا بجنات : فيها أنهار من التمر ، وأشجار من الزمرد ، راعدا بنيران : تتأجج بلهب زرقاء ، كألسنة الابالسة ، الهائمة كالخفافيش ! ••• فى هذا « العالم » استطاعت البشرية أن تعيش ، حياة أغنى وأحفل من حياة الواقع ! ••• «الغرب» ايضا حاول ذات يوم أن يخلق للناس مثل هـذه العوالم ، فظهر فيه أنبياء الخيال، منشئو «الأتيوبيا» ، فصنع «توماس مور » : « جزيرة الخيال»، و «كامبانيلا» : «مدينة الشمس» و « موريللى » : « قانون الطبيعة » • و «كابيه» : «رحلة الى ايكارى » !! ••• ألعاب صبيانية ، كتلك القصور والقلاع والجنان ، التى يقيمها الاطفال على شاطىء البحر من الرمال ! ••• نعم ، خيال مرتب بيد المنطق ، مزين بنظريات العلم والفلسفة ، كما تزين قصور الصبية بأوراق الحلوى الفضية الذهبية ! ••• لكن ، كم من البشر عاش فى هذه «العوالم» التى صنعتها أيدى « العلماء » أنبياء الغرب ؟؟ ••• آه ، ان الغرب انما عاش أجمل حيـاته فى ذلك الحـلم السماوى ، وذلك العالم العلوى الذى صنعه الشرق ، وان ضياع الغرب لم يبدأ الا يوم أفاق من هذا الحلم ، ونزل الى عالم واقعه ،

يدب في هضابه المتحجرة ، ووديانه الجافة ، كما تدب الحشرات !...

وسكت الروسى لحظة ، ثم عاد يقول :

ـ آه !.. السماء ، الجنة ، الجحيم !... جرد عالمنا الارضى من هذه الكلمات الثلاث التى بنيت فى الشرق، تنهار فى الحال أروع أعمالنا الفنية !... كل ما استطعنا أن نخلق من جمال ، انما صنع تحت نور شعاع من أشعة مملكة السماء ، انى أعرف أن « الغرب » اليوم موضع تقدير واكبار ، لعلمه واستكشافاته وانتاجه واختراعاته !... لكن ، ما قيمة هذا الى جانب ذلك الاستكشاف الاعظم الذى ظهر فى الشرق ؟!... ان الغرب يستكشف الارض ، والشرق يستكشف السماء !... ان الذى استطاع أن يغمر البشرية كلها فى حلم يدوم الاحقاب ، ان الذى استطاع أن يصنع مثل هذا « الحلم » ـ لهو حقيقة فوق مستوى البشر !... انا نمجد ذلك الذى أوجد للانسانية ، وأسكن الانسانية ، « قارة جديدة » ... لكنا لانرى مجد ذلك الذى أصعد الانسانية ، وأسكن الانسانية : « السماء » !...

وتأمل محسن مليا قول الروسى وهو مطرق !...

نعم ، انه ليشعر دائما أنه لايسكن الارض وحدها ، ان حياته ممتدة أيضا الى السماء ، وان له أصدقاء وأحباء وحماة من القديسين ، أهل السماء.. انه لن ينسى « السيدة زينب » الطاهرة وفضلها عليه فى الملمات ، ان لها وجودا حقيقيا فى حياته !... ما من مرة وقع فى شدة ، الا وجد العزاء عند باب ضريحها ذى القضبان الذهبية ... كل نجاح ظفر به فى الحياة ، هو دفعة من يدها ، وكل عطف هو نظرة من عينيها ، وكل ابتسامة من الحظ انما هى ابتسامة من شفتيها ! ... أنه يتخيل هيئتها ووجهها

وملامحها !... ويعتقد أنها فى السماء بردائها الابيض ، انما تنظر اليه دائما وترعاه وتجعله من شأنها ، كان هذا هو كل عملها !...

لكن هناك ساعات تتجهم له فيها الحياة ، وتقسو عليه الظروف ويرى كأن « السيدة » قد نسيته ، فيفطن ويذكر لوقته انه فى تلك الساعات ، وتلك الظروف ، انما هو الذى كان قد نسيها !... نعم ، انها لاتنسى الا من ينساها ... اننا ـ أهل الارض ـ لنشغل أحيانا بما نصادف من فوز أو لذة او متعة ، فنقع فى غشيه من غرورنا ... ننسى معها أنفسنا وننسى السماء وأهلها. عند ذاك تتركنا السماء فى حقارتنا الارضية ، ووحدتنا الباردة ، فلا نستيقظ ، ونرى ما صرنا اليه ، الا يوم نحتاج الى حرارة العزاء والى العطف العلوى ...

ذكر الفتى كل ذلك... لقد كان مسجد «السيدة زينب» هو المكان الذى يقضى فيه نهاره أيام الدرس ، وكانت « السيدة » هى التى تقلب له صفحات الكتب ، فيما خيل اليه ، وكانت هى التى تصبره وتشد عزيمته ، وهى التى كانت تجفف ـ بأناملها الرقيقة النقية ـ دموع حبه الاول ، وآلامه الاولى . أنه لم يكن وحيدا ...

آه ... ما أقوى الانسان الذى يعتقد أن له صديقا ونصيرا من أهل السماء !... انه كان يحملها نصيبها من التبعات اذا أخفق فى خطوة ، فان « السيدة » هى التى تخلت عنه ، ولعلها أرادت هذا الاخفاق لحكمة لايعلمها هو ، واذا وضع أمله فى شىء اتجه اليها ضارعا : أن تقف الى جانبه ، وتضم همسها الى همسه ، وصوتها الى صوته فى رجاء « الله » !... ان هذا الاحساس جميل ، وهذا الاعتقاد مريح !...

نعم ، لو شعر « محسن » لحظة أنه فى وحدة مطلقة ،

وأن السماء ليس لها وجود ، وأنها جرداء جدباء ، غير عامرة بكائنات عليا ، تتصل حياته بحياتها ، وأنه قد خلى بينه وبين هذه الارض وحدها الى الابد ، لما عرف كيف يستطيع تحمل الحياة يوما واحدا !...

عندئذ لمعت فى رأس الفتي ـ كسنا البرق ـ صـــورة من حياته فى الغرب ، وللمرة الاولى تنبه الى أمر مخيف : انه لم يذكر « السيدة » فى حرارة الا الآن ، بعد حـديث « ايفان » !...

لقد مرت الايام تلو الايام ، وهو يطالع أفكاراً مختلفـة من الاغريق الى « فولتير » ، ويشاهد وقائع مضطربة ، من أزمات القرن الماضى الى انقلابات ما بعد الحرب !... انها لحمى تعصف بكل رأس ، وان رأسه قد أصبح كبقية ما حوله من رؤوس ، فقاعة بين فقاقيع تملؤها الافكار والحوادث ، وتتدافع فى شبه اناء من خمر مغلي !... ليس فى حياته اليوم اذن مكان تهبط فيه « السيدة » بردائها الابيض !... وان روحه ... قد غار ، كما يغور النجم تحت شمس رأسه المحترق !...

آه ... أنه قد نسى حاميته التى فى السماء !... لو انه أحس يدها على كتفه ... لما تعثر فى خطاه أمام صـــورة « سوزى » !...

اللقاء الصامت

الفصل الحادى عشر

فتح « محسن » عينيه فى الصباح ، على شبه صوت ملائكى ينادى اسمه ! . . . اتراه صوتا آتيا من السماء ؟ . . ولكن النداء تكرر واضحا عذبا ، فوثب الفتى من فراشه ، واصغى ثم ابتسم : انه آت من النافذة السفلى . . عجبا ! . . انها « سوزى » تقول فى نغمة موسيقية :

ـ محسن ! . . محسن ! . . .

فأسرع الفتى الى النافذة كالمجنون :

ـ اتنادينني ؟ . . .

فرفعت الفتاة أهدابها الجميلة ، فى شيء من الدهشة ! . . . ورأى الفتى يدها على قفص الببغاء ، تقدم اليه حب « القرطم » فأدرك كل شيء ، فتخاذل وارتبك :

ـ معذرة ! . . . لقد نسيت أنى أشترك مع ببغائك فى عين الاسم ! . . .

ورآها تبتسم ، ورأى جمالها فى ذلك الصباح الباكر انضر من زهر « النرجس » فى أصص نافذتها ، فتشجع وقال :

ـ نعم ، انى اشترك مع هذا الببغاء فى الاسم ، ولكنى لا أشترك معه فى الحظ ! . . . ان الفرق بيننا عظيم . . انه هو الذى يحظى بعنايتك ، فتنادينه ، وتناجينه ، هذا

الأحمق الذى لا يشعر بمقدار ما يناله من سعادة ! ...
آه ... لأولئك الاشتراكيين الذين يطلبون المساواة بين الناس فى الحظ والنصيب ، وانا لا أستطيع أن اطمع فى مساواتى ، فى الحظ والنصيب ، بهذا الببغاء ! ...

فضحكت الفتاة وقالت :

ــ اتراه مطمعا عسيرا ؟ ! ...

ــ أن أكون مثل هذا الببغاء ؟ ... لست أطلب شيئا الا أن أكون مثله بالضبط ! ...

ــ ولكنك لست فى قفص ! ...

ــ آه يا سيدتى ! ... انى فى قفص ، لا يراه كل الناس !...

فنظرت اليه الفتاة مليا ، ثم قالت باسمة :

ــ اذا كنت حقيقة كذلك ، فأنت تستحق اذن شيئا من ذلك العطف ، الذى تمنحه الطيور السجينة فى الأقفاص !

فاسرع الفتى يقول فى تضرع :

ــ ثقى انى أشد طيور الأرض استحقاقا لعطفك ! ...

فسألته الفتاة :

ــ وما نوع العطف الذى تريده منى ؟ ... انى بالطبع لا استطيع أن أقدم اليك قليلا من « القرطم » ! ...

ــ انك تستطيعين أن تتناولي معى قليلا من « القرطم » ... هذا المساء فى مطعم ... فى اى مطعم يروقك ! ؟ ..

فضحكت الفتاة ضحكة طويلة رقيقة :

ــ يا لك من مداعب ماهر ! ...

ــ أنا ؟ ... يا سيدتى ! ... لأول مرة أسمع من يصفنى بالمهارة فى شىء ... شكرا لك ! ...

☐

لم يأت العصر ، حتى كان « محسن » فى منزل «أندريه»

يقيم الدنيا ويقعدها ، وقد أجلسه صديقه الفرنسى أمام المرآة ، وجعــل ينظم له شـــعره الأشعث ، بينما أخذت « جرمين » ، تنظف معطفه الأسود بالبنزين ، وتزيل عنه البقع . ورأى الفتى اهتمام زميليه ، فصاح يحمسهما :

ـ نعم ، اصنعا منى انسانا خليقا بلقاء فتاة جميلة ! ..

فابتسمت « جرمين » ، وقالت :

ـ عرفت اسمها أخيرا ؟ ...

ـ سوزى ! ...

لفظها الفتى همسا ، وكمن يرتل صلاة ، ولكن « جرمين » سمعته فقالت باسمة :

ـ اسم جميل ... والموعد : أين ؟ ... ومتى ؟ ...

ـ هذا المساء فى محطة « المترو » ! ...

ـ وبعد ؟ ...

ـ سنتناول العشاء ! ...

ـ فى اى مطعم ؟ ...

ـ آه ... صدقت .. لست أدرى ... يالمصيبة ! ... نسيت التحرى عن المطعم الموافق ... اسرع ! ... اسرع يا « اندريه » وخبرنى عن رأيك فى هــذا الموضوع الخطير ! ....

فصاح « اندريه » يائسا :

ـ لا تهتز هكذا ، لقد فسد ترتيب شعرك ، وتبعثرت خصلاته من جديد، آه .. لقد ضاع تعبى فيك سدى !..

ـ ولكن موضوع المطعم ذو أهمية كبرى ! ...

ـ لا شىء أتفه من موضوع المطعم .. هذا الذى تصفه بالخطر والأهمية الكبرى ! ... كل شىء تافه تتخيله أنت دائمــا هائلا ، لو كنت مكانك لأخذتها ، بكل بســاطة الى مطعم « كاردى » ! ...

فضحكت « جرمين » ضحكة طويلة ، فنظر اليها زوجها نظرة العجب :
ــ لماذا تضحكين ؟ ! ...
ــ انه المطعم الذى ذهبت بى اليه يوم لقائنا الأول ، ومع ذلك.. لم تشأ يومئذ ان تطلب من أجلى «أوردفر فاريه» !..
ــ أمازلت تذكرين تلك الحماقات ؟ !...
فصاح « محسن » وهو يلتفت اليهما :
ــ آه أحسنتما صنعا بهذه الحماقات ! ... سأطلب لها انا هذا « الاوردفر فاريه » ! ...
فانتهره « أندريه » :
ــ قلت لك : لا تهتز ! ولا تتحرك ، حتى أفرغ واطمئن على منظرك ! ...
فالتفت الفتى الى المرآة وهو يقول فى قلق :
ــ وهل تعتقد أن الحال سيدعو الى الاطمئنان ؟ ! ..
ــ ان الأمر على كل حال لا ينبغى أن يدعو الى اليأس!..
فسكت « محسن » على مضض ... ثم عاد يقول سريعا ، كمن تذكر شيئا هاما :
ــ اسمع يا « أندريه » ! ... فى جيب معطفى قارورة « هوبيجان » من الصنف الغالى ، اشتريتها عملاً بنصائحك الغالية ... أترى أن أتعطر منها قبيل اللقاء ! ؟ ... انها كفيلة أن ...
ــ المسألة ليست مسألة « هوبيجان » ! ...
ــ تريد أن تقول ...
فألقى « أندريه » نظرة أخيرة على شعر « محسن » ووجهه ، ثم صاح فى نبرة مرحة :
ــ أريد أن أقول ان لك الآن وجه عاشق يستطيع أن يذهب توا الى موعده ! ...

فنهض « محسن » واتجه الى « جرمين » الباسمة :
ـ أهو يخدعني ؟ !
فقالت « جرمين » للفور وهى تقدم اليه المعطف :
ـ انه يقول الحقيقة .. البس معطفك ، وانطلق مطمئنا ، ايها الفتى السعيد ! ...
فارتدى « محسن » معطفه ، ووقف امام المرآة يتأمل هيئته طويلا :
ـ المسألة مسألة ذوق ! ... ما دام المنظر يصلح فى رايكما للذهاب الى المواعيد ، فليس من الكياسة أن أطعن فى ذوقكما ! ... الى الملتقى ! ...
قالها وهو يتحرك الى الباب ، رافعا قبعته السوداء فى الهواء ، وشيعه « أندريه » وزوجته الى السلم ، وهما يقولان باسمين :
ـ تشجع ! ...
انتظر « محسن » الفتاة الى أن جاءت ، وذهبا الى « بوكاردى » فتناولا العشاء ، ثم خرجا الى « الجران بولفار » ، فشربا القهوة فى أحد المشارب ، ودقت الساعة العاشرة ، فنهضت « سوزى » طالبة العودة الى مسكنها ... عند ذاك فقط أفاق الفتى وثاب الى رشده .. وأحس فجأة الجوع ، فهو لم يأكل شيئا فى المطعم ، هو الذى كان قد دخله جائعا ، فخرج منه جائعا دون أن يشعر ! .. وهل كان فى مقدوره ، وهو الى جانبها ، أن يفكر فى أكل أو شرب ؟ ! ... ان المعدة لتنام عندما تستيقظ الروح ! .. انه لا يذكر شيئا من امره ، لكنه يذكر كل شيء من أمرها هى ، يذكر حركة يديها الرشيقتين وهى تتناول « الاوردفر فاريه » ، ويذكر جمال فمها وهو يشرب « البورجونى » ، ويسمع صدى ضحكاتها الرقيقة الخافتة ، عندما كانت تراه يذهل عن الطعام بالرنو اليها ، أو الكلام

الطويل فى أشياء لم يعد يذكر ما هى ...

ومرت الساعات ، كأنها اختلاجة من أهدابها ، وها هو ذا قد حان وقت الافتراق عنها ! ... لا ، هذا مستحيل ، أبهذه السرعة قد وصلا الى باب النزل ؟ ... لماذا يقسو القدر على الناس هذه القسوة ؟ ان الساعة لتطول كأنها الدهر عندما نقع فى كرب أو بلاء ، وأنها لتقصر كأنها ابتسامة عابرة عندما نجتاز النعيم ! ... ولم يرع الفتى الا يدها تمتد اليه مودعة قبل أن تدخل النزل ...

ـ لا ، ان الوقت ما زال متسعا ، ونحن ما زلنا فى اول الليل ، وعندى كلام لم أفض بعد به اليك ...

قالها « محسن » وهو محتفظ بيد « سوزى » فى يده فى حرص وخوف ... فقالت الفتاة :

ـ انى لا أستطيع طبعا أن أستقبلك فى حجرتى الساعة ، ولا أن أصعد الى حجرتك ، فافض اذن بما تريد ها هنا الآن ، أو ... فلنسر قليلا فى هذا الشارع ...

ومشينا جنبا الى جنب فى ذلك الطريق الطويل ذى الأشجار الكبيرة ، الى أن بلغا حدود « بورت دى ليلاس » ، وعادا من عين الطريق الى أن اقتربا من ميدان « جامبتا » ، وفاجأتهما الأنوار فرجعا أدراجهما يحتميان فى ظلام الأشجار ، والفتى لا ينبس ، وهى صامتة صمت من ينتظر منه الافضاء بشيء ... وكأنما عيل صبرها . فقالت فى صوت خافت رقيق :

ـ ماذا كنت تريد أن تقول لى ؟

ـ كل شيء ! ...

ـ انى مصغية اليك !

فأراد « محسن » أن يتكلم ، لكن الألفاظ هربت من رأسه كما تهرب العصافير من الأقفاص ... أن لديه

احساسا عاريا ، ولا ينبغي أن يظهره عاريا أمام سيدة ! .. لا بد له من ثوب أنيق ، فالمرأة يسرها دائما الثوب الأنيق ، وان كان على جسم نحيل من عاطفة نحيلة ! ... ان هذه الفتاة لا شك تدرك ما عنده ، وهى لا تكتفى بذلك ، وهى انما تدمى قدميها ، سيرا فى هذا الليل ، لتسمع الفاظا يلذ لها سماعها فى ذاتها .. فماذا تراها تفعل بمشاعر قوية فى اطمار بالية

وخشى « محسن » العاقبة ، وتغلب عليه الوهم فقال كالهامس :

ـ لا .. لا أستطيع الآن ...

فقالت هى أيضا كالهامسة :

ـ لماذا ؟ ! ...

ـ غدا ، اذا شئت ...

ـ بل الآن ! ...

فتردد الفتى لحظة ، ثم تمالك وانطلق انطلاق الهارب الخائف الذى يريد أن يقنع عقله بالشجاعة والثبات ، قائلا كالمخاطب لنفسه :

ـ لست جديرا أن أقول لك ما أريد الآن ، دعينى أبعث اليك غدا برسول عنى يحسن الكلام ! ...

ـ من هو ؟

ـ الشاعر الاغريقى القديم « أناكريون » ، سأحضره معى عصر الغد عند محطة « المترو » ، وسيفضى هو اليك بكل شىء ! ...

إني أريد

الفصل الثانى عشر

كانت كل حياة « محسن » فى الأربع والعشرين ساعة التالية : ترقب الموعد ، واعداد نفسه ، وترويض لسانه ، وضبط أعصابه لمواجهة الموقف ! . . . وجاء العصر فارتدى ثيابه فى عناية وهم بالخروج ، ولكن الباب طرق عليه ، وظهرت خادم النزل تقدم اليه رسالة وردت « بالبريد السريع » ، ففض الفتى غلافها بيد ترتجف ، وقرأ لمحة واحدة :

« صديقى . . .

« ارجو منك الا تنتظرنى هذا المساء ، فى المكان المعروف ، فانى سأبقى فى العمل الى ساعة متأخرة ، لم تكن فى الحساب ! . . . اذا كنت مع ذلك فى مسكنك ، فانى أمر بك عند منتصف العاشرة ، لأقول لك « بونسوار » ! . . .

سوزى . . . »

عاد الدم يجرى الى وجنه الفتى ، وهدأ تنفسه ، وانتظمت دقات قلبه ، ثم خلع سترته ، وجلس الى مكتبه يفكر باسما ، ويتلو خطابها على مهل . ووقف عند كلمة « صديقى » ، ثم عند قولها : « فانى أمر بك » ، فأحس طرف أجنحة السعادة تمر به ، ورفع عينيه الى ما حوله ، أنها ستأتى هنا بعد قليل . . . ما كل هذه الكتب المكدسة

فى غير ترتيب ؟ ينبغى أن يقر فى الحال النظام محل الفوضى، وقام من فوره الى حجرته ، يهيئها للاستقبال العظيم

□

وجاء الليل وانتشر الظلام فى سماء شبه صافية ، تؤذن بانتهاء الشتاء ، ووقف « محسن » قرب النافذة ينظر الى النجوم المتألقة بأشعتها الزرقاء ، وأذنه مرهفة الى الباب ، فى قلق ونفاذ صبر ، وخيل اليه مرات أنه يسمع نقرا خفيفا على بابه ، فكان يسرع الى فتحه فلا يجد أحدا ! .. لقد اختلط فى رأسه الوهم بالحقيقة من طول التأمل والانتظار ، وسمع أخيرا طرقة هزت قلبه قبل أن تبلغ رأسه ، فأيقن أنها هى ... فأصلح من شأنه على عجل ، وفتح الباب ... نعم ، انها هى ... هذه المرة .. بقبعتها ومعطفها وبقية ثياب الخروج ، ودخلت مبتسمة كأنها زنبقة :

ـ لقد جئت توا كما ترى ، قبل أن أمر بحجرتى ... آه ! ... أهذه حجرتك ؟ ... انها جميلة

ـ الآن فقط ، أرى أنا أنها جميلة ! ...

ـ ما كل هذه الكتب ؟ انك تقرأ كثيرا ... بهذا المقدار تلذ لك الحياة فى ...

ـ وأنت ؟ ...

ـ انى أفضل الحياة فى ... الحياة ...

ـ أنت أيضا ! ...

ـ لماذا تنظر الى هكذا ؟

ـ أصبت ، أرى الآن أنى على خطأ ... ما الذى يعنينى من أمر حياتك أنت ؟ ... ما أنت الا « حلم » يحيا فيه .. الآخرون ...

ـ ومن هم الاخرون

قالتها فى ابتسامة ذات معنى ، وأناملها تعبث بصفحات كتاب فوق المكتب ... وأرخى الفتى بصره ، ولم يجرؤ على المضى فى الكلام ... ونظرت اليــه لحظة ، ثم قالت فى صوت خافت رقيق :

ـ انى مصفية اليك ! ...

فتذكر « محسن » البارحة ، وفطن الى مرادها . فرفع راسه ، وقال :

ـ اتسمحين لى ان أقدم اليك من يســتطيع أن يتكلم باسمى ؟ ...

ـ ذلك الشــاعر الاغريقى الذى قلت لى عنــه ؟ ... ما اسمه ؟

ـ « اناكريون » !

ـ نعم ، نعم ، أين هو ؟ ...

فأشار بأصبعه الى الكتاب الذى تعبث به :

ـ انه بين يديك ! ...

فضحكت ضحكة ساخرة ، ورفعت الكتاب تنظر فيه ، وبادر « محسن » فدلها على احدى صفحاته وقال لها :

ـ اقرئى هذا ! ...

فقرات :

« أنى أريد ،
أريد أن أحب ،
ولقد زين لى « الحب » ان أحب ...
فأبيت من جهلى أن أصغى اليه ...
فقبض من فوره على قوس من ذهب !..
ودعانى الى القتال ..
فلبست له الحديد ،
وأمسكت بالرمح والدرع ! ...
ونهضت ، كأنى « أشيل » ! ...

اتازل ((الحب)) ،
فسدد الى سهاما ،
حدت عنها فطاشت ،
ونفدت سهامه ،
فتقدم الى يتقد غضبا ،
وهجم على فاخترق جسمى ونفذ الى
قلبى ! ...
فانهزمت ! ...
يا لها من حماقة ان اتقى بدروع ! ..
اى سلاح خارجى ينتصر على ((الحب))
اذا كانت المعركة قائمة داخل نفسى ؟ ! ..

وفرغت الفتاة من القراءة ، ولكن بصرها بقى جامدا على السطور ، وكان الفتى قد دنا منها ، يقرأ معها من صفحة واحدة ، فأحس شعرها المعطر قد انتثرت خصلاته الذهبية على وجهه ، كما تنتثر اشعة القمر على الكائنات ، ولم يذكر الفتى شيئا عندئذ ، ولم يفطن الا الى وجه « سوزى » الناعم الحار ، قد لاصق وجهه ، وكأنها تقبله !.. نعم ، انها بين ذراعيه تقبله ، هذا لا ريب فيه الآن ، وهى حقيقة واقعة الآن ، لا وهم فيها ولا غموض ، ولم يدر الفتى كيف حدث ذلك ، ولا ما يصنع بعد ذلك ! ؟ ..

آه لأولئك الخياليين، عندما يعطون فجأة : « الحقيقة » !.. نعم ، فجأة ، اى قبل أن يترك لهم زمن ، يسبغون فيه على تلك « الحقيقة » أرديه الخيال الموشاة ! ... انهم يتلقون جسما غريبا ومادة عارية ، لا يعرفون ماذا يراد بها . ان « الحقيقة » عملة لا تجوز فى مملكة « الأحلام »

لم ينم « محسن » تلك الليلة ، فقد كان ما حدث ذا دوى



« وفرغت الفتاة من القراءة ، ولكن بصرها بقى جامدا على السطور وكان الفتى قد دنا منها ، يقرأ معهامن صفحة واحدة»

فى نفسه ... وجاء الصباح فأسرع الى صديقه « أندريه » يقص عليه كل شيء ! ...

وابتسم الفرنسى لرواية الفتى ، وقال له :

ــ أرأيت انها فتـــاة ككل الفتيات ؟! .. وعاملة كآلاف العاملات !؟ .. تلك التى اسكنتها قصرا من قصـــور الف ليلة وليلة ، وجعلتها تنظر من عليائها ، الى مواكب الناس المتدفقة تحت شباكها . آه أيها الصديق ! ... اقتنعت الآن أن الأمر اقل خطرا مما كنت تتصور ، وأن وقوع امرأة بين ذراعيك مسألة بسيطة ، لا تحتاج الى كل هذا الوقت ، الى كل هذه الخيالات والتأملات ! ؟ ...

فأحس الفتى احساس من يهوى الى الأرض ، وكأن قيم الأشياء فى نظره قد تضاءلت، وكأن الحياة نفسها قدتجردت من غطائها ، ــ فبدت كتمثال مصبوب من السخف ! ... وشعر « محسن » بفراغ فى مادة نفسه ، لا يدرى بعد اليوم بماذا يملؤه ! ...

وترك الفتى صاحبه ، وانصرف مطرقا ، دون أن ينبس بحرف ! ...

نعيم وجحيم

الفصل الثالث عشر

... ولكن للأرض لذاتها وآلامها ! ... ولقــد هبط « آدم » الأرض فغمره نعيم وجحيم ، من نوع آخر ومادة اخرى ... وهكذا ! ... كان يستيقظ « محسن » بعدئذ كل صباح على قبلات ملتهبة ، فيفتح عينيه ، فاذا موجة من ذهب ذلك الشعر الجميل قد غطت وجهه ... وصوت عذب يقول له :

ــ أورفوار ! ...

ثم خطى قدمين صــغيرتين تخطو على خشب الحجــرة ، وتتجه الى الباب ، شبه حركة راقصة ، ثم صوت الباب يفتح ويغلق ... ثم لا شيء ... انها ذاهبــة الى عملها !

لم يكن لــ « محسن » بعد ذلك من عمل الا الاستمرار فى النوم الى الضحى ، فلم يعد به حاجة الى التبكير ، ولم يعد صوت غنائها هو الذى يوقظه ، الى أن يكل من النوم ، فينهض فى تراخ ، ويرتدى ثيابه على مهل ، ثم يخرج الى مطعم « الأوديون » ، بجوار المسرح ينتظرها فيه لتناول الغداء ، ثم يبقى معها حتى موعد فتح شــباك التذاكر فى منتصف الثالثة ، فيتركها ليعود اليها ساعة العشاء فى ذلك المطعم ، ثم يذهبان وقد فرغت من عملها الى « سينما » الحى ، فيجلسان متلاصقين ، يتبادلان القبلات فى الظلام ، كما يفعل من بجــوارهم من عمال وعاملات ! ... وتذكر

« محسن » ذات مرة ملاحظته الأولى ، يوم رأى فتى فرنسيا يعانق فتاة فى الطريق ، لقد حسب يومئذ فى ذلك امتهانا لقداسة الحب ! ...

أتراه يقول ذلك الساعة ؟ ... لا ، ما الذى تغير ؟ .. لا شىء ... انه يحب دائما ، ولكن طعم « الحب » هو الذى تغير . التفاحة هى التفاحة ، ولكنها تفاحة أرض جديدة !.. تفاحة « الأرض » ... حلوة لكن داخلها الدود ! ... ولم يكن « محسن » يطيق أبطاء « سوزى » خمس دقائق عن موعدها ، ولم يكن يحتمل رؤيتها تبتسم لأحد معارفها ، وهى تحني رأسها بالتحية ، ولم يعد يرى صورتها فى أحلامه ممتزجة بأنغام « الأنترمتزو » و « رقصة الفراندول » ولكنه يراها فى نومه ، تعانق رئيسها « هنرى » الذى عرف منها بعض أخباره ، أو يراها تقبل شابا زنجيا تلك القبلات الملتهبة ، فينهض منزعجا مضطربا ، يود لو يمزق جسدها بأسنانه ! ...

□

وجلس « محسن » ينتظرها ذات مساء فى ذلك المطعم ، الذى يؤمه ممثلو « الأوديون » وفنانوه ، ومضت ساعة مجيئها ولم تظهر بالباب ، فاختفى الابتسام من وجه الفتى ، وذهبت رغبته فى الطعام ، وود لو ينهض ويخرج ويركض هاربا ، حتى تأتى ولا تجده ، وخامرته الشكوك ، ولم يستطع أن يقبل فى أمرها عذرا ، وحكم عليها فى نفسه حكما قاسيا ، وتمنى لو يحطم شيئا : حقيبة يدها ، أو طبقا من هذه الأطباق ... ولكن الباب فتح فى تلك اللحظة ، وبدت « سوزى » مسرعة اليه ، وكأنها قرأت فى وجهه كل ما فى نفسه ، فبادرت تقول :

ــ أبطأت عليك قليلا ، أردت أن أحصل على تذكرة دعوة

الحفلة الأولى من الرواية الجديدة ... لأقدمها اليك ! ..
وأخرجت من حقيبة يدها رقعة من « الكرتون » أعطتها اياه ، فأخذها ... ولكن الهدوء لم يستقر فى نفسه ، فقال لها فى صوت حار :

ـ انى أحبك الى حد مخيف ... الى حد الرغبة فى أن انهال عليك ضربا

فقالت مبتسمة وهى تفحص قائمة الطعام بعينيها :

ـ هذا مخيف حقا ، ماذا طلبت من الأكل ؟ ...

ـ انى أحبك ، أحبك كثيرا ! ...

قالها كالمخاطب نفسه ، وهو يفحص بعينيه خصلات شعرها المتهدل تحت القبعة ، وجاء خادم المحل يتلقى الأمر ، فطلبت الفتاة ما اختارت من بين الألوان ، والتفتت الى الفتى الساهم ، كما التفتت الى الخادم وصاحت به :

ـ عجبا ! ... ماذا تريد أن تأكل ؟ ...

فرفع الفتى بصره ، كمن ثاب الى رشده ، وتناول بطاقة الطعام ، وهو يقول :

ـ ماذا آكل ؟ ... لست أدرى ؟ ... اشيرى على انت .. فانى لا أستطيع أن أعصى لك أمرا ! ...

فطلبت له مثل ما طلبت لنفسها ، وانصرف الخادم ، والتفتت هى اليه :

ـ ماذا بك ؟ ...

ـ لا شيء ! ... ما أشد الحرارة داخل هذا المكان ! .. انى أحس العطش ...

وسكب قليلا من الماء فى كوبه ، وجرع منه جرعتين ، وقالت « سوزى » ، وهى تبحث كوبها الذى لم يوضع بعد على المائدة :

ـ أنى أيضا أحس العطش ...

وتناولت كوب « محسن » ، وشربت من الموضع الذى شرب منه الفتى ، وهى تنظر اليه باسمة ، ورأى الفتى ذلك منها ، فقال فى صوت خافت نارى متقطع ، كأنه حمم متطاير :

ـ بى ... رغبة هائلة ... فى أن .. أقبلك الآن ! ...

فضحكت ضحكة رقيقة كلها دل ، ونظر محسن خلسة الى من حوله فى المحل . ثم مضى يقول :

ـ لا أستطيع ، فلأقنع الآن مرغما بالشرب من الموضع الذى مس شفتيك ... كما فعلت معى ! ...

ورفع الكوب الى شفتيه !! ..



الخروج من الجنة

الفصل الرابع عشر

عاش « محسن » حياة « الواقع » ، يأكل ويشرب وينام فى « الحقيقة » ، ولم يفطن الى كتبه المغلقة منذ تلك الليلة ، ولم ير فوق أكداسها غير بضعة دبابيس شعر للسيدات ، وعلبة « بودرة » قد تناثر منها مسحوقها الخمرى النحاسى ، فى لون الاجسام الرخامية التى عانقتها الشمس على شاطىء البحر ... ذلك اللون المحبوب من الباريسيات فى ذلك الوقت !... نعم ، لم يعد البياض الناصع ، لون السحب ، هو المثل الاعلى !... انما هى الحمرة الحارة ، لون الصلصال المحترق !!...

وتلاقى « محسن » و « سوزى » على مائدة المطعم هذا المساء مبكرين ، فالليلة الحفلة الاولى للرواية الجديدة ، وقد جاء للتمثيل فيها الممثل الشهير « دى فيرودى » !

وكان الفتى باسم الثغر ، منشرح الصدر ، يلتهم طبق « البفتيك » فى نشاط ظاهر ، ولحظته الفتاة قليلا وابتسمت قائلة :

ــ ارى أن لك اليوم شهية للطعام !...

ــ ان « البفتيك » لذيذ ، ولكنى ــ مع ذلك ــ مسرور لسبب آخر !...

ــ ماهو ؟

ــ انى مدعو الى الحفلة الاولى فى ثانى مسرح بباريس !..

انها المرة الاولى التى يقع لى فيها ذلك ... وهذا بفضلك ... انى فخور بك !.

ـ هذا شىء لايدعو الى الفخر !..

ـ لا ... انك ...

ـ لاتقل شيئا !.. كل بغير ان تتكلم ياببغائى الكبير !..

ـ آه !... ببغاؤك الـكبير !... كم اغبط ذلك الآخر الصغير !... انه فى قفصه ، فوق نافذتك ، أكثر حرية منى بين يديك !...

ـ قلت لك لاتتكلم حتى تفرغ من طبقك ... انى أعلم أن لاشىء يذهب شهيتك دائما مثل الكلام على المائدة !.. استمع أنت ،وأنا أتكلم !.

ـ نعم ، تكلمى انت !..

وعكف « محسن » على طعامه ، وارادت « سوزى » أن تفتح فمها بالحديث ، ولكن الباب فتح ، وظهر شيخان جليلان ابتسما للفتاة فى تحية من راسيهما ، وجلسا الى احدى الموائد ، وقد هرع اليهما مدير المحل وغلمانه ، ورأت الفتاة علامة الاستفهام على وجه الفتى ، فأسرعت تقول له هامسة :

ـ أتدرى من هذا الشيخ القصير ؟...

ـ من هو ؟

ـ مسيو « دى فيرودى » نفسه !..

فرفع « محسن » رأسه ، ينظر اليه فى عجب واعجاب ، ثم قال هامسا :

ـ هذا « دى فيرودى » ؟!..

ـ انه مثال الوداعة وطيب الخلق

ـ ومن هذا الشيخ الضخم الذى معه ؟

ـ عجبا ، ألم تره من قبل ؟ هذا مسيو « سيلفان » !

ـ « سيلفان » العظيم ؟!..

ونظرت سوزى الى طبق « محسن » ، ثم قالت فى الحال بلهجة الآمر :
ــ والآن ، الكلام ممنوع ياببغائى العزيز !..
ــ نعم !... تكلمى أنت ...
وعاد الفتى الى الاكل ، وجعلت « سوزى » تتحدث :
ــ أتعرف أن زوجة مسيو « سيلفان » تجيـــد طهى « البوبابيس » ؟... وأن مسيو « هريو » وزير المعارف ، وهو الصديق الحميم للممثل « سيلفان » لايستمرىء أكل « البوبابيس » الا من صنع « مدام سيلفان » العجوز ؟!.. اسمع هذا : فى الشهر الماضى ...
ولم تتم ، فقد فتح الباب ، وظهر شاب فرنسى جميل الطلعة ، ماكاد يقع بصره على « سوزى » الى جانب «محسن» حتى تغير وجهه ، وما كادت تراه الفتاة على هذه الحال حتى تغير وجهها ، وانقلب كل شىء فيها راسا على عقب ، وشعر « محسن » فى تلك اللحظة أن مصيبة نزلت به ، لايدرى بعد ماهى ، وجلس ذلك الشاب الى خوان قريب ووجهه فى وجه الفتاة . لـكنه أطرق وجعل كأنه لاينظـر اليها ، ووضع عينيه فى « قائمة » الطعام ...
واطرقت « سوزى » كذلك . وكانت قد فرغت من الاكل فلم تدر ماذا تصنع ، وقلق « محسن » فسألها :
ــ ماذا دهاك ؟
فلم تجبه ، ولم تلتفت اليه ، وأومأت الى غلام المطعم فاقترب منها فقالت له :
ــ مجلة « الالستراسيون » من فضلك !
فأسرع الخادم وأحضر اليها الصحيفة المصـــورة التى طلبتها ، فتناولتها ونشرتها بين يديها ، وجعلت تتأمل صورها فى صمت كأنها غير حافلة بوجود « محسن » الى جوارها ، واحس الفتى منها ذلك ، فغلى الدم فى رأسه ، وقال لهـا بصوت هامس يقطر مرارة :

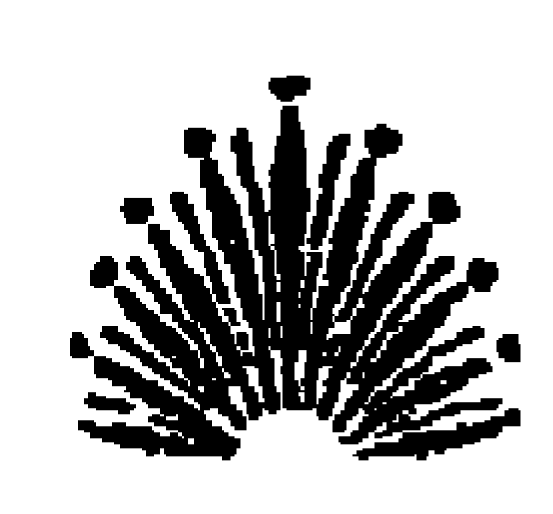
ـ أهذا هو صاحبك « هنرى » ؟..
فلم تجب ، فمضى يقول :
ـ لماذا تسكتين الآن عن الحديث معى ؟
فلم تجب ، فقال :
ـ أريد أن أعرف معنى اهتمامك الآن فجأة بهذه المجلة وهذه الصور ؟!..
فلم تجب ، فقال :
ـ تريدين أن تفهميه فى بساطة أنى انسان لاخطر له عندك، وانك لاتتناولين معى العشاء عن رغبة أو سرور ؟!..
فلم تجب ، فقال ذاهب الصبر :
ـ وبعد ؟.. الا تقولين كلمة ؟.. لقد قضى الامر اذن ، ولم أعد ببغائك العزيز ؟.. وانت ماعدت تحرصين على شهيتى للطعام أو الشراب ، والاقبال على ان تحدثينى كما كنت الآن تفعلين ؟!..
فلم تجب ، ولم ترفع رأسها ، ومضت تقلب الصور ،فقال فى غضب مكتوم ساخر :
ـ ثقى ان خليلك قد اقتنع الآن كل الاقتناع أنك تفضلين قتل الوقت بمطالعة المجلة ، على الحديث مع مثلى !..نعم ، لقد فهم الآن أنى لا أساوى شيئا فى نظرك !
فلم تقل شيئا ، فقال :
ـ لعلك تريدين أن يفهم أكثر من ذلك ، فيرى أنى لست أكثر من معجب مفتون ، من أولئك المغفلين الاجانب ، الذين ينفقون على الغانيات ويتقبلون فى رضا اعراضهن واهمالهن وازدراءهن !..
فلم تجب ولم تتحرك ، فقال :
ـ انك تحملينى من الاذلال مالا اطيق !.. نعم ، ينبغى ان أقول لك : ان ماتصنعين بى الآن لكثير ، وليس الذى يعنينى

من الامر هذا الحب الهائل ، الذى ظهر فجأة الساعة فسحرك، وجعل منك تمثالا من الشمع ، فأنت حرة فى شئون عواطفك، ولا يدفعنى الى هذا الكلام ألم أو غيرة ... حقيقة ان حالى الآن لاتدعو الى الاغتباط والارتياح ، ولكنى أنا أيضا حر فى شئون عواطفى !.. ما أسألك عنه الساعة هو أن تفكرى قليلا فى أمر موقفى ، وأن تنقذى على الاقل المظاهر ، وأن تعاملينى فى شيء من البر والكرم ، والا تجعلينى ذليلا أمام حبيبك أو خليلك ، الا اذا كنت تقصدين ذلك ، وكان هذا هو السبيل ، الذى ترتفعين به فى نظره ، وتصلين به الى عنايته وحسن التفاته !.. وبعد ؟ الا تقولين شيئا ؟. أمصرة انت على هذا الصمت المهين ؟.. اذن ... ليس فى وسعى الآن مع الاسف العميق الا أن ..

واوما الى الخادم فجاء ودفع اليه سريعا قيمة «الحساب» كله ، ثم نهض قائلا :

ـ وداعا ... ياسيدتى !.

ومضى على عجل دون ان ينظر اليها ، وخرج من المطعم ، خروج آدم من الجنة !.



الفصل الخامس عشر

قبع « محسن » فى حجرته ، مهيض النفس ، جريح القلب ، وجعل ينظر الى كل شىء حوله ، كمن ينظر الى شىء غريب ! ... نعم ، لقد فقد هذا المسكن معناه ، وهذه النافذة ، ماعادت تشرف الآن على ذلك الهناء ... وان صوت الغناء العذب المتصاعد من النافذة السفلى ، ليس الآن غير طعنة طويلة ، تنفذ الى سويداء فؤاده !.. فهى انما تغنى دائما للآخر ... انه مازال يسمع فى الصباح ، عين الاغنية من « كارمن » :

« الحب طفل بوهيمى
لايعرف أبدا قانونا »

هذا صحيح !... وهو الآن يلقى جزاء اللعب مع ذلك الطفل البوهيمى !.. انه لم يعد يسمع حتى صوت ندائها للببغاء الصغير !.. ان اسم « محسن » قد اختفى من فمها ، على الاطلاق ، وخطر للفتى أن ينظر الى قفص الببغاء فوق نافذتها ، فأطل من نافذته فأخذه الروع !.. لم يجد قفصا ولا ببغاء ، أين العصفور ؟ أين « محسن » الآخر ؟ لايدرى مصيره هو ايضا ، لعلها قذفت به كذلك الى عرض الطريق ، وحزن الفتى لتلك الفكرة !..

ومرت ساعات ... ومرت أيام ... و « محسن » يعيش فى أله ، كما يعيش الجريح فى دمه !... وخطرت له

خواطر ، وطافت به هواجس !... وانتهى من تأملاته الطويلة الى عزم : أن يراها ويحادثها مرة اخيرة ... آه !.. للمحبين المدحورين !... كم يعلقون الآمال على مايسمونه « المحادثة الاخيرة » ؟!.. انهم لايريدون ان يفهموا أن الشرح والمنطق والتفسير والايضاح ، وكل وسائل الفكر والعقل ، أشياء لاتفيد فى مسائل القلب ، وأن النعيم والجحيم انما تفتح أبوابهما ، وتوصد على شبه ألفاظ سحرية ، لامعنى لها :

« افتح ياسمسم !.. اغلق ياسمسم !.. »

وسمح الفتى ذات عصر صوت غنائها وعلم أنها فى حجرتها ، فتجلد وذهب الى بابها ، وطرق طرقة خفيفة خجلة . ففتحت . وما ان رأته حتى عادت ، فأغلقت فى وجهه الباب فى هدوء ، بغير أن تلفظ كلمة !...

فرجع الفتى أدراجه ، أحمر الوجه ، من أثر تلك الصفعة ، وجلس الى مكتبه ، وأخفى رأسه بين كفيه !...

ومرت عليه ساعات أخرى ، وفكر مرة اخرى : لو أنه استطاع فقط أن يكلمها ويفهمها ؟!..

وحاول فى اليوم التالى أن يعيد الكرة ، فطرق بابها مرة ومرة . فلم تفتح له !.. وتوسل اليها أخيرا ، من خلف الباب أن تصغى اليه خمس دقائق ، يخرج بعدها ولا يعود ، بل انه بعدها يترك المنزل كله ، والمضى بأمتعته الى حيث لاتعلم ، لكنه لم يتلق جوابا !.. فهى سماء صماء ، لايصل اليها دعاء ، وهو عبد طريح على أرض الشقاء ، قد ارتكب خطيئة لا غفران لها ، ولا يدرى ماهى ؟!

وحدثته نفسه أحيانا بالثورة ، وود لو تنقلب كل ذرة من ذرات حبه الى قنابل ، تتساقط محطمة ذلك الشيء الجميل ، الذى كان يسميه « سوزى » !.. ولكن ، رباعية من رباعيات الخيام ، وقعت فجأة تحت بصره ، وهو يقلب الكتاب بين يديه لاهيا حالما :

« اذا اردت أن تسلك
طـريق السلام الدائم
فابتسم للقدر اذا بطش بك
ولا تبطش بأحد !. »

نعم ، فليبتسم ، على الرغم من كل شيء !... حسبه أن قد ظفر بلحظة من هذا النعيم الذى كان يجهله !.. نعم . ان تلك الفتاة استطاعت أن تكشف له عن جانب من جوانب الجنة المجهولة فى كيانه !.. فليكن من أمرها مايكون ، فهو الآن يعلم بفضلها مالم يعلم !.. « جنة الارض » هى التى أعطته مفاتيحها ، واذاقته رحيقها ، ووضعت شفتيها الى جوار شفتيه على حافة ذلك الكوب البلورى ، من الـكوثر الارضى !!..

لكنها قد طردته ؟.. فما مصيره ؟.. أيعود الى السماء ؟!

وترك مجلسه ، واقترب من نافذته ، وأطل منها على نافذتها السفلى ، فوجدها موصدة ، ولكن الضوء ظاهر من زجاجها ، فهى فى حجرتها ذلك المساء ... لـكن ، كيف السبيل اليها ؟.. ان بابها المغلق فى وجهه لاتخترقه صلاة ، ولا يفتحه بخور !.. انها الآن فى حجرتها كاله فى سمائه ، وقد احتجب ، بالسحب واعتصم بالشهب ، فلا يدرى أحد كيف يدنو منه !.. وتأمل « محسن » السماء طويلا من نافذة حجرته العالية ، وقال متنهدا :

« آه !.. أيتها السماء السابعة !...
انى أراك وأحادثك ،
من هذا الطابق الخامس !...
أما فاتنتى ، التى كانت دانية منى ،
فهى نائية ... نائية الآن عنى !...
آه !... لو انها كانت فقط
فى السماء السابعة !؟...
لكنها ... فى الطابق الرابع !!.. »

الوداع الأخير

الفصل السادس عشر

سيدتى ...

لم يكن بد من أن أكتب اليك هذا الخطاب ... اطمئنى ، لن اطلب فيه شيئا ، ولن أرجو منه شيئا ... انى لست اخدع نفسى ، ولست أجهل حقيقة الامر !... انى منذ دخل المطعم مسيو « هنرى » ، ولحظت كيف تغير وجهك ، فهمت فى الحال أن ساعاتى عندك أمست معدودة ، ولعل كلماتى التى وجهتها اليك ذلك المساء لم تكن الا صيحات التشبث بالحياة ! فان كنت قد جرت فى القول ، وانطلقت بكلام أغضبك ، فانى أطمع دائما فى أنك تصفحين ، كما صفحت ، ولا ريب ، الملكة الجميلة « سميراميس » عن زلات لسان « أسيرها » ، يوم دعته الى ليلة من ليالى النعيم ، مهدت فيها الفرش وأقيمت الموائد ، وقدمت « إطباق البفتيك » ، وتلاقت الشفاه على الاكواب ، وفاح عطر الـ « هوبيجان » من أعطاف الثياب وانتثرت خصلات الذهب على الوجوه ، الى ان لاح الصباح ، فتغير وجه الملكة الجميل ، ووضع الاسير فى الاغلال ، ومشى به الى الموت ، وهو ذاهل مازالت فى رأسه بقية من نشوة الليل !...

ان الذى كان يلطف ، من غير شك ، وقع الامر على ذلك الاسير ، انه كان يعلم أن الملكة تلهو ، وأن الجلاد سيستقبله على باب مخدعها فى الصباح ، فهو لم يغتر ، ولم يغب عن عينه السكرى سيف المنية ، يبرق من خلف الكؤوس !...

ولكن ملـكات العصر الحديث يفعلن بأسراهن غير ذلك ، كل شيء عندهن مستتر مقنع ، « فهى » تضع على وجهها ذلك القناع الحريرى الاسود ، الذى يلبس فى « المساخر » ، وتجر خلفها أسيرها وهو مسحور بجمال عينيها الفاروزيتين، تزهران فى السواد ، كأنهما نجمان بازغان فى صدر الليل !.. وتسير به الى خلوة يقرآن فيها صفحات الحب منفردين ، ويلتصق فيها الوجه الحار على الوجه المورد ، ثم تجذبه الى ضجيج الناس والطرقات ، وقد خيل اليه فى هذا الحلم انهما فى « فينيسيا » أيام « الكرنفال » ، وكأن كل شيء حولهما راقص ، وكأن على راسيهما تلك التيجـــان من « الكرتون » الفضى الذهبى ... وكأن حبـــال الورق « السربنتان » الخضراء الحمراء تشد جسميهما ، أحدهما الى آخر فى رباط ، خيل الى الاسير ، وهو غارق فى أحلامه انه وثيق لن ينقطع !.. ولبثا هكذا مرتبطين بتلك «الحبال» يذهبان بها فى كل مكان ، فى المطاعم : حيث « البورجونى » المعتق ، وفى السينما : حيث القبلات فى الظلام !.. عجبا !.. اكل هذا لم يكن حبا ؟! ... من قال ذلك ؟.. ومن أذن للاسير فى أن يشك ؟.. حقيقة انه لم ير كل ماخفى من وجه « الجميلة » ، فهى لم تخلع بعد قناعها !... انه يؤمن بصدق هاتين الفاروزتين اللامعتين !

وجاء الصباح ، وطلعت الشمس ، وغارت النجوم وأفاق ذلك الحالم ، فلم يجد حوله أحدا ، غير كناسي الطـرق يكنسون بقايا الكؤوس المحطمة والتيجان الممزقة ، وأكوام « حبال » الورق ذى الالوان ... التى كان يحسبها قديرة على أن تربط الاجسام طول الاعوام ، اين ذهبت « الملكة » ؟ ... لايدرى !.. كل مابقى منها هو قناعها الحريرى الاسود ملقى تحت أقدام المائدة !..

آه يا سـيدتى ! ... لماذا فعلت ذلك ؟ ... ولماذا لم تخبرينى « بشروط » اللعب من أول الامر ؟ ... لو أنى

عرفت هذا الوضع للأشياء ، لهان كل هذا ، ولكن المروع فى الأمر أنى أخذت كل شىء على سبيل الجد ! ...

ان من السهل على عقليتى الشرقية البسيطة ، أن تعيش فى الأحلام كما تعيش فى الحقائق ، وانها لتأبى أن تؤمن بانهيار الأشياء بمثل هذه السرعة ! ..

لقد كنت أنت ، من غير شك ، تعلمين أن هذا كله ليس سوى عبث لن يدوم طويلا ، ويوم كنت تعرفين انى انما احيا فى مهزلة مبتذلة سخيفة ! ...

لقد هبطت الأرض، صافى النفس، نقى القلب كما هبطها ذلك الاله الهندى « ماهادوفا » الذى تروي خبره الأساطير الهندية : لقد نزل الى الأرض ، كرجل من الرجال ، يرقب اعمال البشر بين البشر ، فقابل فتاة جميلة حياها فحيته ، وسألها عن أمرها ، فقالت انها راقصة من راقصات المعابد ، ورفعت « صفاقاتها » « صنجاتها » بين أصابعها ، ورقصت له ألف رقصة ورقصة ثم ركعت أمامه وقدمت له زهارا ، وقادته الى مسكنها ! ... وهناك جعلت تعنى به ، جاهلة حقيقة أمره ، وتكشف له عن قلب نادر نبيل ، على الرغم مما يحيط به من أدران ، وعاشا فى سعادة الأرض ، الزمن الذى تسمح به سعادة الأرض ! ... وذات صباح ، استيقظت الفتاة فوجدت حبيبها الى جانبها ميتا ، فبكته بكاء مرا ، وجاء الناس والكهنة ، وأحرقوه ، كما يفعل الهنود بموتاهم ، فأسرعت الفتاة ، وألقت بنفسها الى جانبه فى اللهب ، فاصعدها معه الى السماء ! ...

تلك قصة الفتاة الهندية ، أما الفتاة الأوروبية اليوم ، فانها تفعل غير ذلك ! ... انها اعقل من أن تلقى بنفسها فى اللهب ، من أجل الذى تحب . اما من لا تحب ، فهى تعرف كيف تجعله هو اللهب ، وهو الحطب الذى يلقى فى المدفأة ، كى ينشر الحرارة فى مسكنها المغطى بالجليد ! ... خيل الى

يا سيدتى حقيقة ، أن ريحـا باردة قد هبت على ما كان بينك وبين مسيو « هنرى » فى يوم من الأيام ، وكان ينبغى أن أدرك أن قلبك يومئذ ، كان فى حاجة الى الدفء ، وكان ينبغى أن أعلم أن المكان المعد لى ، انما هو « الموقد » !.. وأن هذا الوقود « الحى » ، ينبغى أن يبقى حتى يحترق بأكمله ، ويصبح رمادا ، وتنتهى مهمته ، فتكنس ذراته ، وتطرح فى الهواء ! ...

لست أحب ياسـيدتى أن أتهمك « بالأنانية » ، ولكن عتبى عليك لا يعدو أمرا واحدا صغيرا : كان يحسن بك أن تخبرينى بمهمتى ، حتى أحترق على علم ، وأفيد الغير عن رضا ، ولكنك شئت أن تسخرى بى من تحت « قناعك » حتى تكون لك المتعتان ! ...

لا تحسبى أنى حانق عليك ! ... على النقيض ... ان من حقك أن تصنعى الذى صنعت ، فالحياة عندك متاع !.. وانى أحب لك السرور من أعماق قلبى ، وانى لست نادما على ذلك القلب ، الذى قدمته اليك فى احترام ، فألقيت به فى المدفأة ! ... انه لك على كل حال ... انه كان لك ، تفعلين به ما تشائين ، وقد فعلت به ما شئت ! ... انما الذى يؤلمنى الآن : هو حياتى بعد ذلك ! ... لقد أسرفت فى الخيال ، فجعلت منك كل جنتى ، وعشت هذا الخيال ، وليس من الهين على أن أعيش من فورى فى شىء آخر ! .. انى مثـل ذلك « الملحد » ، الذى طرد حـديثا من حظيرة « الايمـان » فتشرد بعـد ذلك « بقلبه » ، لا يدرى أين يسكنه ! ... مثله مثل صعلوك من صعاليك الحياة ، اذا طلع النهار انسـاق الى ترهات العقل ، حتى يجن الليل ، فأوى « بقلبـه » الى حيطان « العقيـدة » ينطرح فوق الأفاريز

شأنى الآن هكذا ! ... أعلم أنك الآن شىء بعيـد عنى

بعد النجوم ، ومع ذلك ما زلت أعيش معك ! ...

منذ تلك الليلة الحاسمة فى المطعم الى اليوم ، وأنا لا أنام قبل أن أسمع صوت المصعد ، يقف على « طابقك الرابع » وأصغي الى صـــوت قدميك الصغيرتين ، تخطران فى ذلك الممر الطويل ، الى أن يفتح بابك ويغلق ، فأعلم أنك قـد عدت ، فأسرع الى نافذتى أنظر الى الضوء المنبعث من زجاج حجرتك ، وأظل على تلك الحال ساهرا ، حتى تطفأ أنوارك وتنامين ، وعندئذ تنام عينى ، كأنما أنت التى تأذنين لها فى النوم ! .. لا تحسبى ما أقوله مبالغة منى ! ...

لا ، ان كثرة الترقب واعتياد التربص ، قد أكسبا أذنى مرانا غريبـا ، على سـماع أصوات المصـعد ، والخطوات والابواب ، مهما دقت ومهمـا اختلطت ! ... انى بأذنى استطيع الآن أن أميز وقع خطواتك من بين مئات انى لم أر وجهك منذ تلك الليلة ، لأنى لم أجرؤ على النظر اليك ، ولكنى أقنع بعالم الأصوات التى تصـدر عنك ، وتصلنى بحياتك اليومية

العجيب فى الأمر انى اعلم أن كل هذا حمق غير مجد ، ومع ذلك أفعله ! ... وأعجب منه أنى أحصى عليك خفية كل حركاتك ، فأعلم أنك تلك الليلة سـهرت أكثر ممـا ينبغي ! ... لست أدرى اين ؟ ... والليلة التالية عـدت مبكرة ! ... لست أدرى لماذا ؟ ...

معذرة ، هذا السلوك المعيب منى انما أنا رجل شريد ، طرد من قصر « الحب » السحرى ، فهو يلجأ فى يأسه اذا جن الليل الى الحيطان والأفاريز ! ... ولقد فكرت بالفعل فى ترك هذا المنزل ، والانصراف الى شأنى ، وربما فعلت ذلك فى يوم قريب ! .. لكنى حتى الآن لم أقو على ذلك !..

انى افهم الآن مـوقف آدم عقب اخراجـه من جنـة السماء .. انى أتخيله قد لبث ــ بغير حراك ــ فى الموضع

الذى هبط فيـه ، ومرت به ليال وأيام وهـو ينظر الى السماء ، يرقب كل حركة فيها : اذا رعدت ، فهى صوت أبوابها ، تفتح لتناديه من جديد ، وأذا لمع البرق ، فهى ابتسـامة رضا قد يعقبها انفراج المحنة ، واذا تساقطت الشهب ، فهى همسات غضب ما زال قائما ، واذا استدار البدر ، فهو شفيع وبشير بعودة الهناء القديم ! ... وكر الزمن ، وآدم يتمرغ فى مكانه بين اليأس والرجاء ! ...

عنـد ذلك المهبط من الأرض ، يمسح وجهـه بأعتاب النعيم ، الى أن انتزعته غريزة « الحياة » من هذا القنوط الطويل ، وأرغمته على النهوض ، فقام يدب فى الأرض ، ويعيش كما تعيش الأحياء من المخلوقات ! ..

انى لست أعرف كم لبث آدم فى مر زمن ، وانى لأتوق الى معـرفة ذلك ، ولكن الذى أعرفـه على التحقيق : أن جنتى أنا دامت أسـبوعين ، حسبتهما حسـابا دقيقا ، بالساعة والدقيقة ! ... منذ الليلة التى ذهبنا فيها معا الى مطعم « بوكاردى » ، الى الليلة التى خـرجت فيهـا وحدى من مطعم « الأديون » ، أسبوعان من النعيم ، هما كل زادى ، وكل كنزى ! ...

وبعد ... فانى قد أطلتعليك كثيرا ، وليس من حقى ان أسلبك كل هذا الوقت ، لتطالعى حماقاتى ! ... وليس مـن حقى كذلك ، أن أنتظر منك ردا على هـذا الخطاب الطويل ، فحسبى منك ــ برا وكرما ــ أن تقرئيه فى ساعة فراغ ! .. انه على أى حال نوع من اللهو ، وهو على كل حـال صـائر الى « المـدفأة » !... وان كنت أرى أن « الشتاء » قد انقضى ، فقد ظهرت عندك بشائر الربيع !.. أمس رأيت على نافذتك آنية ، يبسم فيها زهر « الكرز » ، فى أغصـانه الرفيعة الأرجـوانية ! ... فذكرت أغنيـة « سان سانس :

الربيــــع جـــــاء ! ...
يحمـــل الرجـــاء ! ...
الى قلــوب الأحبــاء ! ...

ما أكذب هذا الشعر ! ... هذا الربيع ، على غير أمل الناس فيه انما هو الذى جاء ينتزع الرجاء ... ومع ذلك فانى استقبل بوجهى نسماته العاطرة ، ولا أرجو منه شيئا كما يفعل الآخــرون ، انى أخشـــاه كما خشيه « حافظ الشيرازى » :

حــبى نســـيم الربيـــع ،
قادنى الى الصحراء ! ...
لقد حمل الى النسيم عطره ،
لكنه اخذ منى راحتى ! ...
الهى ! لا تحمل هذا الجمال ،
الــذى لا قلب لــه ! ...
وقر أشجان الهائمين بحبه ! ..
لقـــــد جثــوت فى الطريق
الذى عفــرته أقدامها ! ...
لكنهـــا لــم تدن مــنى ،
لقد ارتفعت توسلاتى وتنهداتى ،
فأزعجت نوم الطيور والأزهار ! ..
لكنهـا لم تفتـــح عينيهـــا ،
بالأمس مس الكوب شفتيها ،
وقال : انه يعطى الحياة ! ...
فقلت : لا بل هى التى أعارته
الحيــاة ومــع ذلك ، لو أنى
أمامهـــا مت محترقا ! ...
لما أطفأت لهبى بأنفاس شفتيها ! ..

ما أصدق هذا الشعر ! .. كل كلمة فيه ، كأنها عاشت

حياة آدمية ! ... أخــيرا أستأذنك فى طرح القلم ، فان الفجر قد بدا من النافذة ، وأخشى أن تغضبى لمجرد انى اختلست طيفك ليلة ! ... أرجو مرة أخرى أن تغفرى لى هــذه الثرثرة . فأنا لست خيرا من « محسن » الآخر فى شيء ! ... أعنى « الببغاء الصغير » ! .. انى لم أعد ارى قفصه فى نافذتك . فلعله حى يرزق انى أيضا حى أرزق . لقد تحققت أمنيتى ، وتســاوينا فى عين الحظ والنصيب « الببغاء الكبير » و « الببغاء الصغير » !.. الا تذكرين ؟.. كل ما يحزننى من أمر « محسن » الصغير أنه هــو أيضا ، وقد أصبح بعيدا عنك ، لا يستطيع هو أيضا أن يحييك كل صباح بذلك الصغير المعتاد مرددا :

« أحبك ! ... أحبك ! ... أحبك ! ... »

« محسن »



محسن يطالع الرسالة التى كتبها الى فتاته قبل ان يبعث بها اليها

الفصل السابع عشر

صديقى ...

على الرغم من خطابك ، الذى وجهت الى فيه كثيرا من اللوم ، فانى ما زلت أدعوك « صديقى » ! ... أو لسنا صديقين ، ما دمنا نشكو من عين الداء ؟ ... انى لم استطع اليوم منع نفسى من الرد عليك ، بل لقد هممت فعلا بزيارتك هذا الصباح ، غير أن خطابك وما فيه من صواب ، وما جاء به من عتاب ، قد أشعرنى بقبح موقفى طول الأسبوعين « المعروفين » ، ولقد عدت الى حجرتى بعد تلاوة كلماتك ، وانا حقيقة متألمة ، ولقد وددت لو انى لم اعش قط هذين الأسبوعين ! ... انى خجلة ، ولا أستطيع أن أقابلك وجها لوجه ! ... كيف السبيل الى محو كل هذا من ذاكرتك وذاكرتى ؟! ...

نعم ، لست انكر ، انى كامرأة تحب بكل جوارحها ، قد كنت حقا « أنانية » ! ... انى فكرت بالفعل ذات يوم فى أمر تصرفاتى ، وتنبهت الى ما فيها من ضرر وشر ، ولكنى مع ذلك أقدمت على هذا الشر ، آملة أنك لن تعجز عن الانفصال عنى ! ... نعم ، ارجو أن تثق كل الثقة أنى ، عندما فكرت فى كل هذا ، لم يخطر لى قط على بال ان الأمر سيصل بك الى مثل هذا اليأس ! ...

صدقنى ، انى محزونة حقا لهذه النتيجة ! ... وانى ،

من اعماق قلبى ، أبدى لك شديد أسفى ! ...

لكن .. ماذا عساى أستطيع أن أفعل ، لأنال الصفح ؟! ..
ان آلامك تترك فى نفسى ألما عميقا ! ... وأرجو منك أن تثق بذلك ! ...

وبعد ، أتقبل منى أن أمد يدى وأصافحك ؟! ...

« سوزى ديبون ... »

حاشية : ـ

سألتنى عن الببغاء الصغير ، وقلت انك لم تعد ترى قفصه فى نافذتى ! ... هذا صحيح ! ... انه ليس عندى الآن ، فان أمر طعامه وشرابه ، والالتفات اليه ، لما يحتاج الى وقت ، لا استطيع أن أكرسه له ، فسمحت لنفسى أن أهديه الى «كلوتيلد» حارسة القاصير ، وقد أوصيتها أن تعنى به كل العناية ، فكن مطمئنا ! ...

« س ... »



العودة الى السماء

الفصل الثامن عشر

ترك « محسن » مسكنه فى نزل « زهرة الأكاسيا » واستأجر حجرة فى النزل الذى يقطنه صديقه «ايفانوفتش»، وكان الروسى قد اشتدت عليه وطأة المرض ، فلم يشأ الفتى ازعاجه بكثرة الكلام، فلزم هو أيضا حجرته ، لايخرج منها الا فى الصباح ، يقطع شوارع الحى صامتا ، ثم يعطف على باعة المأكولات يوم السوق ، فيشترى « كيلو جراما » من الأرز وموزة واحدة ، يعود بهما الى حجرته حيث يهىء غداءه بيده ! ... ذلك شأنه أكثر الأيام ، فقد نضبت موارده من طول الانفاق فى المطاعم الجيدة ودور السينما والمشارب ، وهو الآن لا يستطيع حتى تناول الأكل فى مطعم الحى الحقير ! .. انه الآن يدفع ثمن الأسبوعين اللذين قال أنهما « كل زاده وكل كنزه » ، واللذين قالت « هى » : « انهما شىء تتمنى لو يمحى من ذاكرتها ، وتود أنها لم تعشهما » ! ...

ووقف الفتى أمام النار فى أحد أركان حجرته ، يرقب فوران الماء فى آنية الأرز « الألومنيوم » ، وهو صامت مفكر شأنه فى كل يوم من تلك الأيام التى مضت ، كأنها أعوام !.. يتبخر الماء فيصب غيره فى الاناء ... ويتبخر فيصب غيره .. والأرز لا ينضج ، فيأكله آخر الأمر شبه حصى !.. ما من مرة نضج معه هذا الأرز ! ... وما من مرة خطر له أن يسأل أحدا فى طريقة طهيه ، أو يغير هذا اللون من

الطعام ... لماذا يفعل ذلك ؟ ... ليس للأكل الآن مذاق فى فمـه ، وان « الكيلو » من هـذا الأرز الرخيص ليكفيه خمسة أيام ! ...

وكان لحجرة « محسن » الجديدة نافذة ، لم يفتحها قط منذ مجيئه ولم يدر على اى شيء تشرف ! .. لا يريد أن يعـرف ... ان نافذة قلبه قـد أغلقت . وما من شيء يسـترعى التفاته الآن ، غير أسـعار « الأرز » مدونة على البطاقات فى الحوانيت ، وغير عناوين الكتب القديمة ينظر اليها معروضة فى المكاتب ، دون أن يمسها . وكان احيانا يلمح فوق غلاف الكتب فقرة أو عبارة أو بيتا من الشعر ، وضع على سبيل الاستشهاد ، فيجعل منه « نغمة » ، يظل فكره يرتب عليهـا « تقـاسيم » طول النهار ، وكان يجد فى هذا شيئا من السـلوى ، غـير أن بصره وقع ذات يوم على كتاب ، جعل فى رأسه هذا القول لشاعر يابانى :

انما يبنى الشاعر سعادته على الرمال ،
ويسطر أشـعاره فوق ماء الجـدول
الجـارى !...

نعم !... هنا كل البلاء الآدمى !... ألا يمكن للنفس الشاعرة أن تقيم هناءها على دعائم أثبت قليلا من هـذه الرمال ، التى تغرق فيها الابل . وتكتب أغانيها على صفحات أبقى من صفحات هذا الماء ، التى تطويها فى شـبه طرفة العين أنامل الهواء ؟...

نعم هنالك سبيل واحد : لاينبغى أن نبنى شيئا جميلا فوق هذه الارض !... هذه الارض المتغيرة المتحركة برمالها ومائها وهوائها !..

وفطن الفتى ، أن هنالك حقا نوعا من الهناء ، قد عرفه يوما ، هو هناء الصفاء !... هذا الصفاء الذى لايوجد الا فى الارتفاع !..

وأحس الفتى فعلا ، كأنه قد خف وزنا ، وكأنه يرتفع، وكأنه يبتعد عن الارض ، ليعود الى السماء ، الى سمائه التى كان قد هبط منها !!...

ولعل « الأرز » أعانه على ذلك ، فان «الزهد» هو سلم « الصعود » !!...

وأقبل الفتى بعدئذ على غذائه الحقير الضئيل فى لذة روحية ، وبسمة راضية وضاءة ، أنارت له مسالك نفسه المظلمة ، وذكرته بسروره فى صباه يوم كان يقتات «بالفول النابت » ، ويجلس بكتابه كل يوم الى جوار ضريح «السيدة زينب » !...

لم يكن شىء يعكر عليه صفاءه الروحى يومئذ غير حارس المسجد ، ذلك الشيخ المتأنق ، فى عباءته الثمينة ، وشعره المخضب بالحناء ، وعيونه الكحيلة ، ينظر بها الى صندوق « النذور » بين يديه ، وغير سجاجيد المسجد الغالية ، وثرياته الكبيرة ، لماذا كل هذا ؟!... ان الفتى لم يكن قط يخالجه شعور اللذة العليا الا وهو فوق الحصير ، حيث كان يتخذ مكانه دائما ، لا فى قاعة الضريح ذاتها حيث الفرش والرياش ، وبقية تلك المظاهر الحمقاء لذلك الاحترام الكاذب، والخشوع الزائف ، انما فى تلك الردهة الخارجية ، التى طرح الحصير على بعض أرضها ، وترك البعض الآخر عاريا نظيفا ، كالنفس النظيفة العارية !... كان يحس الفتى ، هنالك ، أنه أقرب الى روح السيدة الطاهرة !...

وجعل « محسن » ـ طول يومه هذا ـ يقلب مثل هذه الافكار ، وعاوده شوق وحنين الى المسجد ، أو الى بيت من بيوت الله ، وتذكر الكنيسة !... نعم ، ان فيها أيضا قد أحس يومئذ عين احساس الصعود ، لكن ، تلك المراسيم والطقوس ... سرعان ما جذبته الى الارض ، لتوقعه فى ذلك الحرج ، الذى وقع فيه ذلك اليوم !...

نعم ، كلما همت روح الانسان بالتحليق نحو الاعالى كبلتها أكاذيب الانسان ، وأنزلتها الى التراب ، كل شقاء الانسانية أنها لا تستطيع أن تترك شيئا عظيما ، ذا قداسة بغير أن تلبسه ثيابا مبتذلة مضحكة ، من حمقها وزيفها وغرورها ؟!...

لماذا أراد الناس أن يجعلوا «الله» فى حاجة الى السجاجيد الفارسية يفرش بها بيوته ؟!... و « السيدة » فى حاجة الى « النذور » والنجف والشمع ، كأنها لا تستطيع النوم فى الظلام ، ثم ذلك « القمقم » الفضى فى الكنيسة ، وتلك الاشارات والعلامات ، لماذا كل هذا ؟؟...حتى «الموسيقى العظيمة » ، التى استطاعت أن ترفع الانسان الى بعض القمم ، سرعان ما جعلوا لها ثياب سهرة ، ترتدى من أجلها ، وقواعد وتقاليد ، لا بد من مراعاتها !... وتنقلب الامور على مر الزمن ، فينسى الناس الاصل والجوهر ، ويذكرون الفرع والعرض ... فاذا كل التفاتهم الى ثياب السهرة ، دون « الموسيقى » ، اذا كل عنايتهم بالمظاهر والمجاملات ، دون الايمان والعبادات ، ولا يستثنى من بين هؤلاء الا الفقراء التعساء ، الذين جاءوا حقيقة للصلاة ، ومن بين أولئك — الا الهواة — « زبائن » أعلى « التياترو » الذين حضروا حقيقة من أجل الموسيقى !...

ان « الاخلاص للدين والفن ، يستوجب «التجرد» !...

وذكر « محسن » « بيتهوفن » ، وتلك « السانفونية الخامسة » ، التى كان قد سمعها ، وذكر ذلك الجو العلوى الذى عاش فيه ذلك اليوم ، فحدثته النفس بالذهاب الى « الكونسير » !...

نعم ، فليذهب ولو ادى ذلك الى حرمانه أكل الموز شهرا بأكمله !.. لالزوم للفاكهة ، انه يستطيع أن يكتفى بالارز أسبوعا .. وأشرق وجه الفتى لهذه الفكرة ، وأحس كأن

بردا وسلاما يهبطان قلبه ، ويضمدان جروحه ! . . انه الآن يشعر ببعض القوة ، ولم يعد يخشى شيئا !.. هو الذى كان قد حرم على نفسه ، خوف الضعف ، ذكر الجميلة قاطنة نزل زهرة « الاكاسيا » ، تلك التى أجهزت على أمله ذبحا ، بخطاب رقيق رقة حد السكين المسنون !

نعم ، الآن . . . بقليل من الموسيقى يستطيع أن يعتصم بالسحب ، ضد هذا الحب الارضى ، الذى وضع أنفه فى الرغام !..

وذهب « محسن » الى مسرح « شاتليه » ، فوجد من حسن حظه « برنامجا » موسيقيا حافلا : « بارسيفال » و « سحر يوم الجمعة الحزينة » لريتشارد فاجنر ، و « السانفونية التاسعة » لبيتهوفن !

وكانت نقوده لا تسمح له بأكثر من مكان للوقوف بأعلى المسرح فما تردد !.. وكان حريصا دائما على اقتناء ذلك الكتيب الصغير ، الذى يباع فى الردهة ، فان فيه تحليلا دقيقا فى أكثر الاحيان للقطع التى تعزف ، وبيانا عن ظروف وضعها ، ونبذا من تاريخ مؤلفيها ، فما أحجم عن شراء نسخة ، وأسرع يتخذ له مكانا ، تحت مصباح من مصابيح الكهرباء وجعل يطالع على عجل هذه السطور :

« لقد أراد فاجنر أن يصور بموسيقاه ، قصة المسيح اذ جاء يحمل الى الانسانية ، التى نخرت فيها « الانانية » ناموس « الحب » الذى يخلصها من الخطيئة !.. ولقد جاء فى خطاب خاص ارسله «فاجنر» الى صديقه الموسيقى « لست » : كيف نبتت فى خاطره فكرة تأليف هذه القطعة؟!

ووصف المشاعر التى أثارتها فى نفسه ذكرى الجمعة الحزينة فى يوم من أيام الربيع ، حيث كان فى مدينة « زوريخ » : « لاول مرة استيقظت يوم الجمعة المقدس على شمس مشرقة ، فنظرت الى الحديقة حولى فألفيتها

خضراء ، تصدح فيها العصافير ، فجلست على عتبة البيت ، انعم بهذا « السلام » ، الذى انتظرته طويلا !.. واثر فى نفسى هذا الصفاء الذى يكشف الاشياء فتذكرت ، من فورى ، أن اليوم هو يوم الجمعة المقدس !.. وعند ذاك خطر لى ان اضع هذه القطعة »

وانقطع « محسن » فجأة عن القراءة ، فقد أطفئت الانوار ، ووقف « المايسترو » ، ينقر بعصاه الرفيعة نقرا خفيفا على قمة مصباحه الاخضر ! تنبيها للعازفين ، وبدأ « الاوركستر » يعزف مقدمة « باوسيفال »

نغمة ترتفع منفردة أول الامر ، لا يصحبها شىء : كأنما هو صوت واحد يتكلم ، وسط سكون الكون !.. صوت ، فى عين الوقت ، الهى وبشرى !.. وتمضى تلك النغمة حاملة فى أعماقها بذور الالحان الدينية ، التى تتركب منها القطعة ، الى أن تقابلها تلك الاقوال المقدسة : خذوا ، وكلوا ، هذا هو جسدى !.. خذوا ، واشربوا ، هذا هو دمى !.. ثم يسمع من « الكواتيور » شبه رعدة مبهمة ، بين عديد من الانغام السريعة المتعاقبة ، ورنين الصناجات المكبوت ، كأنما هو صوت طليق ممتد ، يخفت شيئا فشيئا تحت قباب كاتدرائية عظيمة !..

« واستمر الاداء ، و « محسن » ليس على هذه الارض ، الى أن أشار « الاستاذ » بعصاه اشارة الانتهاء ، وانطلقت الايدى بتصفيق كأنه الرعد ، فتنبه الفتى ، وقام الناس يدخنون فى فترة الاستراحة أو يتحادثون ، وبقى « محسن » واجما فى مكانه ، ولمح على المسرح حركة دخول أفراد مجموعة المنشدين « الكورس » من سيدات ورجال ، ينتظمون فى اماكنهم ، فرفع الكتيب الى عينيه ليقرأ ماقيل عن قطعة « بيتهوفن » ويهيىء نفسه للمثول بين يدى هذا القلب العظيم ، كى يسمع منه ، ويفهم عنه .. وقرأ الفتى

هذه الصفحة : « وبلغ فن « بيتهوفن » فى « السانفونيـة التاسعة » غاية ما يستطيعه بشر فى عالم البناء الصـوتى ، ولقد اخرج هذا العمل فى تلك المرحلة من حياته ـ التى ابتلى فيها بالصمم ـ كارثة جاء ذكرها فى وصيته التى كتبها فى اكتوبر سنة ١٨٠٢ م ، على اثر ازمة قوية من أزمات اليأس ، تبدو من هذه الاسطر : الى شقيقى « كارل » و « جوهان » بيتهوفن : أنتما يا من كنتما تحسبان انى انسان حقود عنيد أكره الناس .. ما أظلمكما !.. انكما لتجهلان السبب الخفى لكل هذا الذى ظهر لكما من أمرى .. انى ، منذ الطفولة ، كنت أحس أن نفسى وقلبى يتجهان بطبعهما الى الخير !.. انى كنت دائما على استعداد للقيام باعمال عظيمة ، ولكن لا تنسيا انى منذ أعوام ستـة ، أصبت بداء قاس ، زاده خطرا عجز الاطباء !.. وانى الفيت نفسى مرغما على العزلة قبل الاوان ، وعلى انفاق بقية حياتى بعيدا عن العالم !.. ولقد حاولت أن اتجاهل احيانا مانزل بى ، ولكن التجربة المؤلمة كانت تذكرنى دائما بانى قد فقدت السمع ، ومع ذلك فانى لم أستطع ان اتجرأ مرة وأقول للناس : تكلموا بصوت عال !.. صيحوا .. انى أصم !.. آه ، كيف أعترف بهذا وأعلن للناس ضعف حاسة ، كان ينبغى أن تكون عندى أقوى مما عند جميع الناس ، حاسة كنت أملكها ـ فيما مضى ـ على اكمل نمو ، وادق تركيب ، وأرهف شعور ، مما لم يتيسر لغيرى من الموسيقيين !.. كلا !.. لا أستطيع ، لهذا ارجو أن تصفحا عنى اذا كنت اليوم اهجر ـ كما تريان ـ هذا العـالم ، الذى كنت فيما سبق أمرح فيه بكل نفس راضيـة !.. انى لشديد الاحساس بمصيبتى ، وانى من اجلها ينكرنى الجميع !.. لم يعد الآن من حقى ان أنشد الراحة فى صحبة اخوانى الآدميين !.. انتهت مسرات المحادثات اللطيفـة ، ولذات المناقشات الرفيعة ، انتهت المصارحات القوية ،

وتبادل المناجاة الحارة ، حالى الآن لا تسمح لى بارتيـاد المجتمع الا بالقدر الذى تحتمه الضرورة القصوى !.. ينبغى اذن أن أعيش مطرودا منبوذا !.. أى اذلال يجرح نفسى احيانا ، اذ أرى الى جانبى أحد الناس ، يصغى الى أنغام مزمار يعزف عن بعد ، لا أستطيع أن أسمعها ، او اناشيد راع ، لاأستطيع أن أسمعها كذلك !..» يروى احد أصدقاء « بيتهوفن » أنه فى صباح صيف ١٨٠٢ م ، استـرعى التفات صديقه الى راع فى الغابة ، يعزف على ناى من قصب الحانا شجية ، فأبدى « بيتهوفن » جهدا مرهقا ليسمـع شيئا ، فلم يستطع ، ورفق به صديقه ، فكذب عليه ، وزعم له أنه هو أيضا لا يسمع شيئا ، لبعد الصوت عنهما ولكن « بيتهوفن » فهم الحقيقة ، وغرق فى حزن عميق !.. ومثل هذه الحوادث كانت تلقى بى على أعتاب اليأس ، وكادت تغرينى أن أضع حدا لايامى !.. ولكنه الفن وحده هو الذى أبقى على حياتى ... آه ، انه ليشق على ترك هذا العالم ، قبل أن أعطى كل ما أحس ، داخل نفسى من مخلوقات ، لم تزل بعد فى طور التكوين !.. آه ايتهـا القدرة الالهية !.. انك لترين من عليائك ذلك القاع السحيق فى أعماق قلبى !.. انك لتعرفين أنه عامر بحب الانسانية والرغبة فى عمل الخير يا شقيقى « كارل » و « جوهان » اذا انتهت أيامى ، وكان طبيبى الاستاذ « شميت » لم يزل حيا ، فالتمسا منه باسمى أن يصف دائى ، وأن يرفق ذلك بصفحاتى هذه ، فلعل الناس بعد موتى يصفحون عنى على الاقل !.. أما اساءتكما لى ، فأنتما تعلمان أنى قد صفحت عنها منذ أمد بعيد !.. وكل ما أتمنى الآن ، أن تكـون حياتكما أيسر من حياتى ، وأن تعفيا مما رزئت أنا به من متاعب !.. وأوصيكما أن تعلما أطفالكما « الفضيلة » ، فهى وحدها ــ لا « المال » ــ السبيل الحقيقى للسعادة !.. وانى أتكلم عن تجربة ، « فالفضيلة » هى التى كانت كل

سندى فى محنتى ، واليها والى « فنى » يرجع كل الفضل فى انى لم الجأ الى الانتحار . وداعا !.. وليحب احدكما الآخر !.. »

لقد كان بيتهوفن يعيش اذن فى ظلام السكون ، عندما اخرج « سانفونيته التاسعة » ، ولقد احتمل كل ذلك فى جلد ـ كما قال فى وصيته ـ ولقد خضع لحكم القدر فى شجاعة ، كما يقول فى مذكرات أخرى : « الاذعان ، الاستسلام !.. فلنعرف كيف نستخرج الدرس الخلقى النافع ، من أفدح المصائب والكوارث !.. بذلك نجعل انفسنا جديرين بمغفرة الله !.. »

لم يبق اذن « لبيتهوفن » من الحياة غير متعة البصر : عيناه وحدهما أمستا كل صلته بالطبيعة ، وقد انحصر كل فرحه فى ارسال النظر الى وديان « فينرفالد» الخضراء يهيم فى غاباتها ملتمسا من الطبيعة العزاء ، آملا أن يجد فى صدرها كل قوى الحياة والخلق ، صائحا فى فضائها من اعماق قلبه تلك الصيحات التى وجدت مدونة فى أوراقه :

« يارب الغابات !.. يا ربى القدير على كل شىء ، انى احس البركات ، وأشعر بالسعادة فى هذه الغابات ، هنا كل شجرة من هذه الاشجار تسمعنى صوتك !.. يا لها من روعة أيها المولى العظيم !.. هذه الاحراش ، وهذه الوديان ، تفوح برائحة الهدوء والسلام !.. هذا السلام الذى لابد لنا منه ، لنستطيع أن نتفانى فى خدمتك ! »

ووقف « محسن » عن القراءة فى عجب وتأثر شديدين ! لكأن عبيرا يعرفه ، يهب من طيات هذه الكلمات ، أن هى الا كلمات من النبع ، الذى صدرت منه كلمات أنبياء الشرق

وأطفئت الانوار ، وتكلم « بيتهوفن » .. انه لا يتكلم

كبقية الناس ! لكنه يقيم من الاصوات عالما ، لا تدخله ولا تسكنه غير الارواح الخيرة المهذبة ! .. وتحددت أركان تلك « السانفونية » ووضحت للآذان والارواح : هيكلا عظيما ، مشيدا على أعمدة نورانية ، من أنغام آلية ، واصـــوات آدمية !

ولم يتمالك « محسن » ، وأخذته رجفـــة ، وتصبب جبينه بالعرق ، نشوة عليا ، عنـــــد ما ارتفعت الابواق النحاسية الى جانب صيحة « الكورس » :

« قفوا متعانقين !..

أيتها الملايين من البشر !..

أيها الاخوة !..

ان فوق النجوم أبا

حبيبا الى كل القلوب !...»

ولبث الفتى مشدود الاعصاب ، متفصد الجبين ، فى شبه ذهول حتى عزف « اليجرو » الختامى ، والتقت أصوات الرجال والنساء بصوت « الاوركستر » !.. فكأنما أستار السماء قد انفرجت ، ليصل الى آذاننا غناء الحور والملائكة، مجتمعين فى جنة الخلود يلقون نشيد الفرح ، ذلك القبس الالهى ، فرح الانفس التى تعيش فى « الله » !..

الى الشرق

الفصل التاسع عشر

نزل « محسن » الدرج ، ليخرج كعادته الى الطريق ، يستنشق هواء ذلك الصباح الجميل ، فرأى باب حجرة صديقه « ايفان » مفتوحا ، وسمع سعاله ، فعطف عليه ، وضرب الباب مستأذنا .. فأذن له ودخل الفتى فوجد الروسى جالسا على سريره ، أصفر الوجه ، بين يديه كتب ثلاثة ، فقال له :

ـ كيف حالك اليوم يا مسيو « ايفانوفتش » ؟

ـ بخير !..

ـ انك تجهد قواك فى القراءة ، وأنت لم تزل مريضا !..

ـ اجلس !..

قالها الرجل على نحو غريب ، عجب له الفتى ، ونظر بطرف عينه الى الكتب ، وقرأ فى دهشة :

« التوراة » ، « الانجيل » ، « القرآن » !..

ثم التفت الى « ايفان » وقال :

ـ عجبا !.. انك فيما أعلم لاتؤمن بشىء ...

فقال الروسى ، كالمخاطب لنفسه :

ـ أريد أن أعرف : كيف استطاعت هذه الكتب الثلاثة أن تعطى البشرية راحة النفس ، وأن تغمرها فى ذلك الاطمئنان؟! نعم !... انى لاأومن بشىء ، وانى ارى أحيانا الموت دانيا

منى ، وفى يده « خرقة » : ليمحونى كما يمحى رقم كتب بالطباشير فوق لوحة سوداء !... فاحتقر نفسي ، وازدرى كل حياة انسانية ... آه !... ما أسعد أولئك المؤمنين ، الذين يرون الموت مرحلة الى حياة اخرى مجيدة جميلة !.. انهم لاشك ينظرون الى الموت ، كأنه عربة » بولمان » فى قطار سريع ، يذهب بهم الى نزهة « آخر الاسبوع » ... انمثل هؤلاء لايمكن أن يروا الحياة الانسانية الا أنها شيء عظيم . لانها تشغل الكون دائما ، طول الخلود ، انهم لايستطيعون ان يزدروا انفسهم هؤلاء الناس !..

ـ ولماذا لاتؤمن أنت أيضا بالحياة الاخرى يامسيو « ايفان » ؟..

ـ آه !... ثق أنى أريد ، فالرغبة والارادة لاتعوزانى . ولكن ... أمن الممكن لمثلى أن يؤمن بالجنة والنار ، كماكان يؤمن بها المسيحيون فى عصر الشهداء ؟!. انهم كانوايتقدمون للذبح ، ويلقى بهم الى أنياب السباع وهم يبتسمون ، راضين مقتنعين أن أبواب الجنة مفتوحة لاستقبالهم ، مصغين الى صوت المسيح يقول لهم من عل : « طوبى لكم ، اذ عيروكم ، وطردوكم ، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين ، افرحوا !.. وتهللوا ، لان اجركم عظيم فى السموات !.. »

ـ ومثل ايمان المسلمين فى عهد النبى ، فقد حدث فى موقعة « بدر » ، التى نشبت بين المسلمين وأعدائهم من قريش ، ان مسلما ترك القتال وانتحى يأكل بلحا ، فسمع النبى يقول : « لايقاتل اليوم رجل ، فيقتل صابرا محتسبا ، الا ادخله الله الجنة ! » .. فقذف الرجل بالبلح من يده، وقام يصيح : « أفما بينى وبين دخول الجنة الا ان يقتلنى هؤلاء ؟!.. » ثم رمى بنفسه فى أحضان الاعداء ...

ـ نعم ، يخيل الى أن مثل هذا الايمان لايمكن أن يعرفه الغرب اليوم !.. ان الشرق يوم أعطى الغرب هذه الاديان ،

انما أعطاها على النحو الذى ذكرنا ، فتسلمها الغرب ، وألبسها أردية موشاة بالذهب ، ووضع على رءوسها التيجان المرصعة بالماس ، وأقبضها صولجانات الجاه والسلطان والجبروت الارضى !.. ان الكنيسة فى أوروبا ، كانت ـ فى يوم ما ـ أعظم مؤسسة مالية ، وان نظامها الرأسمالى لادق نظام . وان ثروتها الطائلة لتسند ظهر اقوى البيوت المالية ، وتقوضها اذا شاءت فى طرفة عين ، فأين ذهبت كلمة المسيح : « ما اعسر دخول ذوى الاموال الى ملكوت الله ، لان دخول جمل من ثقب ابرة أيسر من ان يدخل غنى الى ملكوت الله !!... »

ـ وأين ذهبت كلمة النبى محمد : « انى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة ، فاخترت لقاء ربى والجنة !... » ثم قوله أيضا : « اللهم توفنى فقيرا ، ولا توفنى غنيا ، واحشرنى فى زمرة المساكين !... »

ـ نعم لاشك أن المسئول عن انهيار مملكة السماء هم رجال الدين انفسهم !... أولئك الذين كان ينبغى لهم أن يتجردوا من كل متاع الارض ، ويظهروا فى زهدهم بمظهر المنتظر حقا لنعيم آخر فى السماء ... لكنا نراهم هم أول من ينعم بمملكة الارض ، وما فيها ، من اكل طيب ، يكنزون به لحما ، وخمر معتق ، ينضح على وجوههم الموردة ، وتحت امرتهم : السيارات يركبونها ، والمرتبات يقبضونها !.. انهم يتكلمون عن السماء ، وكل شىء فيهم يكاد ينطق بأنهم يرتابون فى جنة السماء ، وانهم متكالبون على جنة الارض ، هؤلاء هم وحدهم ، الذين شككوا الناس فى حقيقة مملكة السماء ! ... ان كل مابناه الانبياء : بزهدهم الحقيقى ، وجوعهم وعريهم ، مما أقنع الناس بأن هؤلاء الرسل انما هم حقا ينتظرون شيئا فى العالم الآخر ، جاء هؤلاء فهدموه !...

وكانوا هم أقوى دليل على كذب مملكة السماء، وخير دعاية لمملكة الارض!... وانسوا الناس بانغماسهم فى هذه الحياة، أن هنالك شيئا آخر غير هذه الحياة!...

ــ صدقت فى كل هذا يا مسيو « ايفان » .. ان مسلك رجال الدين قد يشكك عامة الناس ... لكن انت ... من كان مثلك على هذه الثقافة وهذا العلم ... انك تستطيع ان تقيم ايمانك على لباب الكتب السماوية وحدها، بغير حاجة الى .. احد ..

ــ وهذا ما أردت أن افعله ايها الصديق، منذ ليال وأيام ... غير أنى ... ينبغى ان أصارحك .. لم أستطع ... لم أستطع مطلقا ...

ــ لم تستطع ماذا ؟..

ــ آه !.. لقد فسدت فى راسى كل تلك الصور الجميلة للحياة الاخرى، كما تفسد زجاجات الصور «الفوتوغرافية» عندما ينفذ الضوء الى حجرتها السوداء ... لست أدرى سببا لذلك ... يخيل الى أنها الحضارة الاوروبيةالحديثة، لا تسمح للناس أن يعيشوا الا فى عالم واحد ... ان سر عظمة الحضارات القديمة انها جعلت الناس يعيشون فى عالمين ... لقد عرفت تلك الحضارات « العلم »، و « العلم التطبيقى »، فالحضارة التى تشيد الاهرام، لايمكن ان تجهل العلوم النظرية والتطبيقية، ومع ذلك فان ذلك العلم لم يفسد من الرءوس زجاجات الصور، التى تمثل الحياة الاخرى ــ تلك الحضارات أسميها انا « الحضارات الكاملة » ولكن آسيا وافريقيا ارتبطتا بالزواج، فى طور من أطوار التاريخ، وأنتجتا مولودا جديدا : هذه الفتاة الشقراء ــ التى تسمى « أوروبا » ــ جميلة رشيقة ذكية، لكنها خفيفة أنانية، لايعنيها الا نفسها، واستعباد غيرها !...

وهنا قاطعه « محسن » قائلا كالمخاطب نفسه :

ـ نعم ، « أنانية » لاتعرف غير حياة الواقع ، ولا يهمها شقاء الغير ، ولا تحب الحياة الا فى ... الحياة

فمضى الروسى يقول ، دون أن يفهم ما جال فى خاطر الفتى :

ـ نعم ، نعم !... هى كذلك حقيقة ... ان هذه الفتاة ترى المجد كله فى شىء واحد : تضع الاصفاد فى أرجل البشر ، وبدأت أول ما بدأت بأبويها : افريقيا وآسيا ... أنكرتهما ، وحبستهما ... وانطلقت فى الحياة ، لايحدها حد ، ولا يقوم لها شىء ... الى أن انتهى بها المطاف فى بيت من بيوت الليل ، تديره ، وتشاهد فيه شجار السكارى ، يحطمون الكراسى والكئوس !... انى أخشى أن تكون أوروبا موشكة على دفع الانسانية الى هوة ... انها لتثوب أحيانا الى رشدها ، وترى مصيرها ، فتقع فى أزمة من أزمات الضمير : انها لتستيقظ فيها الروح أحيانا فتشك فى نفسها ، ويخيل اليها أن مدنيتها الخلابة ليست الا بهرجا وأن علمها الحديث كله ـ وهو وحده الذى تتيه به على البشرية ، فى مختلف تاريخها ـ ليس من حيث القيمة العملية غير « لعب » من صفيح وزجاج ومعدن ، قدمت للناس بعض الراحة فى أمور معاشهم، ولكنها أخرت البشرية ، وسلبتها طبيعتها الحقيقية ، وشاعريتها ، وصفاء روحها !... ان السكك الحديدية والطيارات قد أعطتنا السرعة ؟ ... وتوفير الوقت ، ولكن ما فائدة ذلك ؟ ... ولماذا السرعة ؟ ... ولماذا توفير الوقت ؟! ... كأنما قد هبطت علينا شياطين تلهب ظهورنا بالسياط !... مانحن الا قطرات ماء فى نهر الحياة ... ما حظنا من سرعة التيار، واندفاعه الى البحر ؟!... انما حظنا الاكبر : فى التمهل حول الاعشاب النائتة ، والسكون عند شواطىء الجزر ، يداعبنا النسيم !... من الذى استفاد من هذه السرعة الملعونة غير قبضة من النهمين ، جمعوا فى أيديهم الثروات،

وسموا بالرأسماليين !... أما أنا وأنت وبقية الآدميين الوادعين ، فقد خسرنا تلك الرحلات الطويلة ، على ظهور الجياد أو الابل ، ننزل فى كل مرحلة ، ننعم بالطبيعة فى أشكالها المختلفة ، وفى أوقاتها المختلفة !... نعم كسبنا السرعة ، ولكن خسرنا ثروة النفس التى تنمو باتصالها المباشر بالطبيعة ، انما اليوم نفرح بكلمة السرعة ، وننسى أنها ليست سوى اغفاءة ، نقضيها فى عربة قطار ، يمرق بنا فى نفق مظلم ، ويوصلنا حقيقة فى وقت قليل الى حيث أردنا . ولكنا لانعرف بعد ذلك ماذا نصنع بالوقت الباقى، فننفقه فى الحمق والسخف ... ان الطبيعة لتنتقم ، وان كل وقت يسرق منها لانجد له سوقا ننفقه فيه ، غير سوق النخاسة الخلقية ، والانحطاط الآدمى!... كذلك «السينما» ، ـ كما يقول « دوهاميل » ـ لاتعطينا غير الطبيعة محفوظة فى العلب ، أو قصصا سخيفة ، تؤثر فى أعصابنا تأثير « الافيون » ، « والراديو » وما يقدمه من قشور المعلومات وردىء الموسيقى ... كل شىء فى هذه المدنية الحاضرة يتآمر على قتل الفضائل الانسانية العليا ، وصفاتها الآدمية السامية ، وقواها الطبيعية الكامنة ، بتعويدها التراخى والكسل ، باسم « الراحة الحديثة » حتى نامت كما ترى النفوس والارواح ، وأصبحنا أمام ناس مصنوعين من « الألمنيوم » . مصيبة المدنية الأوربية نزلت منذ استقرار الصناعة الكبرى !... هذه الصناعة التى شطرت المجتمع الأوربى الى شطرين : فئة قليلة كل همها جمع المال، وفئة كبيرة كل همها أن تقدم هذا المال فى مقابل لقمة ! ... الفئة الاولى لادين لها الا الذهب ، والفئة الثانية لا دين لها اطلاقا ولا شخصية ولا نفس ، لأنها آلات صماء .. ان نظام تقسيم العمل قد أدى الى أن صنع الدبوس الواحد أصبح محتاجا الى ثمان عشرة عملية مختلفة، كما يقول «ادم سميث»، وأن العامل الواحد قد يقضى حياته كلها فى صنع رأس

الدبوس فقط ، وآخر فى صنع جزء آخر منه ، كذلك الحال في صناعة الاحذية ، فهي فى بعض المعامل الامريكية تقسم الى أكثر من مائتى عملية ، يخص العامل الواحد منها جزء واحد من عشرة أجزاء : كعب الحذاء مثلا ٠٠٠ معنى هذا أن العامل لم تبق له حتى تلك اللذة الفنية القديمة ، التى كان يحسها ويرتاح اليهـــا ، وهو يصنع بيديه حذاء كاملا فى حانوته الصغير • نعم !٠٠٠ حتى متعة الخلق الكامل ، التى كانت تشعره بآدميته قد ذهبت ، وأصبح الآن شأنه شأن المخرطة أو المطرقة أوالمنشار ، يخرط ، ويطرق ، أوينشر ، جزءا صغيرا معينا بالذات من هذا الدبوس أو ذاك الحذاء ، وهو يكرر هذه العملية التافهة كل حياته !٠٠٠ ما الفرق بينه اذن وبين الآلة ؟!٠٠٠ لافرق ، ان الرجل مازال يحس آدميته بالنسبة للشيء الذى يصنعه ، ويخلقه بيديه ، آنية من الفخار كان ، أو حذاء ، أو رداء منسوجا على نول ، أو قطعة أرض يزرعها ، ويجنى ثمـارها !٠٠٠ انه لم ينقلب بعد ـ لحسن حظه ـ منشارا آدميا ، أومخرطة بشرية!٠٠٠ استمع الى الكاتب الانجليزى «ألدس هكسلى» يصف أوروبا الحديثة : « ان اسلوب الحياة فى العصر الحاضر ليـدعو الى الاشمئزاز ، ذلك أن تطور النظام الصناعى قد أدى الى نمو فجائى لتعداد أوروبا ، ففى نحو قرن واحد تضاعف سكانها ، ثم جاء بعد ذلك التعليم الابتدائى للجميع ، فنتج عنه ظهور جمهور هائل من القراء ، ونشط لهـذا الجمهور أصـحاب الاعمال ، فأنشأوا صناعة جـديدة : هى صـناعة « مادة القراءة» !٠٠٠ هذه « المادة المقروءة » لم تكن ـ ولا يمكن أن تكون مطلقا ـ غير بضاعة من النوع الردىء جـدا ! ... لماذا ؟ ... تلك مسألة حسابية : ان عدد الكتاب ، أصحاب الموهبة الفنيـة ، قليل دائما . ومن هنا نرى أن الجـانب الأكبر للأدب المعاصر ، هو دائما غاية فى الرداءة ، ولما كان الأوربيون قد اتخذوا عادة القـراءة طول الوقت ـ وتلك

رذيلة ، كعـادة تدخين « السجاير » ، بل ربمـا كتدخين « الأفيون » أو تعاطي « الكوكايين » ، فان أوربـا اليـوم تتغذى بأدب من الطبقة العاشرة . وهذا كله حدث جديد ، اذ في المـاضي لم يكن الناس يعرفون غير قليل من الكتب حقيقة ، ولكنها كانت من أجود نوع ، ولأضربن مثلا بالانجليز ، فلقد كانوا الى عصور قريبة يشبون على « الكتاب المقدس » وعلى « رحلة الحاج » لـ « جـون بانيان » ! ... كتابان لا نظير لهما فى نبل المعنى وصفاء الأسلوب ! ... اما اليوم فانهم يشـبون على « الديلى اكسبريس » وعلى المجلات والقصص « البوليسية » ، فالتعليم العـام كان له هـذه النتيجة السيئة : فهو بدلا من أن يجعل النـاس يقرءون قليلا الآثار الخالدة قد جعلهم يقرءون دائما حماقات مخجلة! ... ان الفن القـديم قد يقصر أحيانا عن الاجادة ، لانه ساذج أو ناقص ، ولكنه لم يكن يوما قط مبتذلا . لماذا ؟.. لان الأقدمين لم تهيأ لهم الاسباب أن يكونوا مبتذلين !

فأطرق « محسن » قليلا ثم قال :

ـ نعم ، ربما كان هذا صحيحا ! ... ان الأعرابية فى خيمتها ، تلك التى كانت لا تعرف ما هى القراءة والكتابة ، كانت تتذوق الجيد من شعر جرير ، والأخطل ، والفرزدق ، وتتغنى بأحسن أغانى . مصعب ، ونصيب ، واسحـاق الموصلى ، وتطـرب للفجر الجميل ، وتهتز نفسها لنسيم الأصيل ، وتفل الصحراء ـ بفتنتها الطبيعية ـ على سحر القصور الزائف ! .. ان مستوى الذوق العام ـ وبالأحرى مستوى الثقافة الحقيقية ـ لا شأن له بكتابة أو قراءة ! ..

فقال الروسى بقوة :

ـ على النقيض ، ان فكرة التعليم العام للقراءة والكتابة كغيرها من بقيـة الافكار الأوربية الخاطئـة ، التى روجتها أوروبا ، وجعلتها بمثابة المبـادىء الثابتة ثبوت العقائد ،

قد انقلبت أسلحة فتاكة لجوهر الطبيعة البشرية ، فالدهماء التي تعلمت تلك الرموز السخيفة ، ماذا اكتسبت ؟ ... لقد حشيت أدمغتها بسخف وقاذورات كما يقول «هكسلي» ، وهبط مستوى ذوقها ، ومع ذلك لم تتكون لها شخصية ولا ارادة ، فها أنت ذا تراها تنقاد كالخراف الى كل من يقوم فيها ناعقا أمام « ميكرفون » ، فالدهماء هي الدهماء ، ولا أصلح لقلبها وعقلها من وسائل الشرق الطبيعية في التهذيب : تعمير قلبها بالدين وعقلها بالكتب السماوية النبيلة الفصيحة ، وتركها تتصل بالطبيعة لا « محفوظة في علب » ... الراديو والسينما والكتب ، ولكن الطبيعة الحقيقية ، أمنا الرءوم ، تكشف لهم عن جمالها وأسرارها مباشرة ، بغيروسيط من الرأسماليين المغامرين ، وأصحاب الأعمال الأفاكين !... تلك هي نتائج العلم التطبيقي عندما ترك في أيدى الأوربيين ، وذاك أثره في النفس الانسانية ، انظر بعد ذلك أثره في جسم البشرية ، تجد أنه استحال الى قنابل وغازات خانقة وطوربيد وغواصات ودبابات ، الى آخر ذلك الابداع والتفنن في وسائل الفتك بأجسام البشر ، فالعلم التطبيقي في الغرب كل محوره تحطيم البشرية روحا وجسما !... ان العلم تلك «الماسة» العظيمة المتألقة لم تضعها أوربا في قمة عمامتها ، لتشع نورا وجمالا ، ولكنها وضعتها في سن مخرطة بخارية ، لتقطع بها زجاج ذلك الكأس العظيم : كأس البشرية المتلىء بماء روحها ، ومادة جسدها !... أما العلم الصرف البعيد عن ضوضاء « الآلة » ، ومطامع أصحاب المنافع ، فان الشرق هو الذى عرفه لذاته ، كمظهر من مظاهر العبقرية الآدمية المفكرة ، في تعطشها لمعرفة الحقيقة العليا!...وهنا كل نبل العلم ، وغايته . هذا العلم الخالص أورثته أفريقيا وآسيا فتاتهما الشقراء أوروبا ، سبائك ذهبية وأحجارا كريمة من الزمرد والفيروز والياقوت ، فاحتفظت الفتاة

ببعضه ، وجعلته حليا لبهرجها ، وهنا كل جمـال أوروبا الفكرى الباقى ، أما بقية الكنوز فصهرتها وصكتها نقودا تضعها فى المصارف ، وصنعت منهـا أغلالا تستعبد بهـا العالم ! ... ومع ذلك فهى لم تعرف التحلى بالعلم لذاته الا منذ عهود قريبة !... لاتنس أن أوروبا هى الوحيدة التى أعدمت فى يوم علماءها حرقا ، واتهمتهم بالسحر والجنون، وخنقت حرية الرأى حتى فى شئون الادب والفن. وجعلت من المسيحية ، التى تبشر بالمحبة والسلام، سلاحا للفتك أمام محاكم التفتيش . ولكن أوروبا اليوم أبرع قليلا من ذى قبل، فهى تجيد اخفاء حيوانيتها ، تحت ريش صناعى ، يمثل أجنحة ملك سماوى . ان أوروبا اليوم فى أزمة شديدة . لاشك أنها أخطر أزمة مرت بها ، ذلك أنها قد تنبهت الى أن ما زعمته مدنية عظيمـة قد أفلس ، وظهـرت من تحت الريش أنياب الخنازير البرية !... وقـد فهم الشرق أن فتاته ليست الا غانية خليعـة ، لا قلب لهـا ولا ضـمير ، وليست لها قيمة روحية ولا خلقية ، وأن مآلها السقوط ، ممزقة الجسد ، تحت موائد المعربدين ، فى ذلك الخان الذى تشرف نوافذه من جهة ، على المحيط الاطلنطى ، ومن الجهة الاخرى على البحر الاسود !... أيها الصـديق !... الى الشرق !... الى الشرق !... فلنرحل معا الى الشرق .. ان أجمل ما بقى لاوربا انما أخذته عن الشرق ! ... لم تعد حياتى هنا !... ماذ نصنع الآن ههنا ؟؟ ... حتى راحة النفس لانجدها هنا ... ان العودة الى الهدوء والصفاء هى فى عودتنا الى فضاء الصحراء ، هنـاك نستنشق بملء رئتينا ، لا دخان المداخن ، ولكن رائحة السماء ، هناك لانجد تلك السحب الكثيفة ، التى تحول بيننا وبين الله ؟ هلم بنا، لقد يئست ...

ان قليـلا من الأمل قد داعب قلبى ، اذ تذكرت منـذ أيام حـكاية عودة الشـاعر الفرنسى « كوكتو » الى حظيرة

الكنيسة ، وأنت لا شك تعرف حكاية هذا الشاعر القلق!..
لقد استنفد كل حياة الفكر والفن ، وعرف المجد الادبى ، وانغمس فى نهر الحياة اللاهية ، وبلغ كل ما يستطيع أن يبلغه المفكر الشارد وحده بعيدا عن الايمان !... فماذا حدث ؟... تملكه السأم من الحياة ، وشعر بالنقص فى كيانه ، وبالفراغ فى قلبه ، فضاق ذرعا بأيامه ، فألقى بنفسه القلقة فى أحضان « الافيون » ، لعله يجد فيه الشفاء والراحة ، استمع اليه يقول فى خطابه ، الى صديقه الفيلسوف « جاك ماريتان » : « ان الافيون ليحملنا الى نهر الموتى ، انه ينسخنا ، ويحولنا الى شبه مرج من المروج اللطيفة ، ويجعل من جسدنا ليلا ، تتزاحم فيه النجوم ، كأنها النمل ، ولكن سعادتنا هى سعادة فى مرآة ، نغدو فيها من رءوسنا الى أقدامنا محض أكذوبة واذا نحن كالمومياء: تقف آلة الاجسام وتأبى الاعضاء أن تطيع ، لاتؤثر فينا تقلبات الطقس ، وما نعود نشعر ببرودة أو حرارة !... لقد كان مصوروا « نابلى » يزينون حيطان المساكن ، بما يسمونه « خدعة العين » . ان «الافيون» ليس الا مصورا طريقته « خدعة الروح » ، أنه يزين حيطان الحجرة التى أدخن فيها بتصاوير تلذ لى وتريح نفسى ، ان الافيون هو طارد الحيرة والقلق .. ان الافيون ليشبه « الدين » بالقدر الذى يشبه فيه « المشعوذ » « المسيح ! » .. الخ . الخ

وأشرف « كوكتو » أخيرا على الدمار ، الى أن ألقى بنفسه فى أحضان الدين . هنا كان أملى الاخير أنا أيضا ، اذ اعتقدت أن الاوروبى المفكر ، الذى شب على هذه المدنية ، يستطيع أن يعود الى الايمان الحقيقى فى الوقت المناسب ، الى أن قرأت هذه الرسالة المتبادلة بين «كوكتو» و«ماريتان» فخامرنى الشك !... انها رسائل على غاية ما تكون من البراعة فى الاسلوب ، واتقاد الذكاء ، ولكنها ليست أكثر

من « قطع أدبية » !... آه ، انهم يكتبون « أدبا » ، هؤلاء الناس ــ حتى يوهموننا أن المسألة مسألة حياة أو موت... ان الفرق بين عبقرية الغرب الروحية ، وبين عبقرية الشرق الروحية ، كالفرق بين « المشعوذ » و « المسيح » !...
خذ هذين الكتيبين : اقرأهما ، وأخبرني هل تصدق ان هذين الرجلين يعتقدان حقا بالسماء وما فيها ، من جنة ونار ، اعتقاد ذلك المسلم الذى قلت لى الآن : انه ألقى البلح من يده ، وجرى يقدم نفسه للقتل ، واعتقاد أولئك الشهداء من المسيحيين الغابرين ! ... انى أفهم أن يتكلم هؤلاء الشعراء الاوربيون عن الدين والمسيح كلاما كله اعجاب خالص ! ... انى أيضا أعجب الاعجاب الخالص بالاديان ، ولكن الذى أريد ليس مجرد الاعجاب ، كما نفعل أمام قطعة فنية من عمل عظماء الفن او الادب أو الفكر ! ... لست أريد الاعجاب الناشىء عن آلاتنا المفكرة ، وما فيها من بضاعة ثقافية مكتسبة أو موروثة ، انما أريد الايمان : ايمان القلب ، الايمان الاعمى بأن المسيح فى السماء ، وأن الله هو الله كما يتصوره البسطاء ، وان الجنة هى الجنة كما يتخيلها أولئك الذين قال فيهم المسيح : « طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السموات ! ... طوبى لأتقياء القلب لانهم يعاينون الله ! ... »

آه يا صديقى ، يا اخى ! ... ان أوربا كلها الآن ليست الا رجلا مفكرا قلقا حائرا يتعاطى الافيون. ان «جان كوكتو» هو كل « اوروبا » فى أزمتها الحاضرة ! ... انتهت أوروبا ، ولا شىء من داخلها يستطيع انقاذها ، لان كل شىء الى « عقليتها » هذه ــ تحوله الى أدب وأسلوب وزيف وكذب ! ... انما الانقاذ من الخارج ، انما النجاة فى الفضاء الى هناك ... الى الشرق ... قم معى ... الى الشرق

... افتح هذه النافذة ... دع الهواء يدخل ، اخلع عنى هذه الأردية الثقيلة ، هذه السحب الكثيفة تحجب عنى...

وامتلأ فم الروسى برغوة وزبد ، ووضع يده على عنقه يمزق قميصه ، كأنما هو يختنق ، واصفر وجه «محسن» ، ولم يبد حراكا ... ثم تنبه قليــلا من ذهوله ، فصــاح صيحة مدوية ، وأسرع الى الباب يطلب النجدة ! ...



قُضي الأمر

الفصل العشرون

اعتكف « محسن » بضعة أيام ، علم خلالها أن صحة « ايفانوفتش » غاية فى السوء ، وجاءه صاحب النزل ذات صباح يطرق عليه بابه ، ففتح له مفزوعا !

ـ ما الخبر ؟ ...

ـ صديقك الروسى ...

ـ مات ؟

ـ لما يمت بعد ، ولكنه يسأل عنك اليوم منذ طلعت الشمس ...

ـ وكيف حاله ؟

ـ لست أدرى ، هو يزعم أنه اليوم بخير ، ولكنه مريض بذات الرئة ، كما تعلم ، داء لا يرحم ... أتذكر ذلك اليوم عندما صحت مستنجدا ؟ ... لقد أغمى عليه أيضا فى المساء ، وكان فى حالة احتضار حقيقية ، فاستدعينا له القسيس ، ولكنه ما فتح عينيه قليلا وأبصره حتى صاح فيه وفينا بصوت خائر لكنه ثائر : « أبعدوا عنى هذا السكير بوجناته الموردة ! » ... وتصور عندئذ أى حرج وقعنا كلنا فيه ! ... على أى حال ، قد بلغتك يا مسيو « محسن » ، ولك أن تذهب اليه اذا شئت ، أو لا تذهب

وخرج صاحب النزل ، تاركا الفتى فى مكانه مطرقا مفكرا . ولم يجد « محسن » بدأ من الذهاب الى « ايفان »

على الفور ، فقام ومضى الى حجرته ، فوجده فى فراشه ، يتأمل أشعة الشمس الداخلة من النافذة ، وتنبه الروسى لحركة دخول « محسن » ، فوجه بصره اليه ، وأشار له بعين باسمة الى شعاع ذهبى انعكس على الفراش :

ـ ما أجمل الشمس اليوم ! ...

ـ نعم ...

قالها الفتى فى غير اكتراث ، وهو يتأمل وجه الرجل الشاحب وفرحه الذى يشبه فرح الأطفال الساذج بهذا الشعاع فوق سريره ، وساد صمت ، قطعه المريض بشبه همس :

ـ آه ؟ ... النور ... النور يشرق من بلاد الشمس ، ليغرب فى بلاد الغرب ! ...

ثم التفت الى « محسن » وقال له فى صوت متداع :

ـ اقترب يا صديقى ، وانهضنى قليلا ... فانى سئمت طول الرقاد ! ...

فتردد الفتى خوفا عليه :

ـ انى أخشى ...

ـ لا تخش شيئا ، ضعنى بجوار النافذة ، أعنى على الجلوس ، حيث يغمرنى نور الشمس ! ...

فلم ير « محسن » بدأ من تلبية رغبته . فساعده على القيام ، ومشى به الى ظهر صندوقه الخشبى ، حيث وضعه عليه وضعا ، فقال الروسى وهو يستنشق الهواء بما بقى له من رئتين :

ـ شكرا لك ... أيها ... الصديق ! ...

ثم أمسك بيد « محسن » بين يديه ، ونظر اليه طويلا وقال :

ـ أتعاهدنى ؟ ...



« اقترب يا صديقي ، وانهضني قليلا .. فاني سئمت طول الرقاد »

ـ على ماذا ؟ . . .

ـ ان نذهب معا الى . . . الشرق ؟ . . .

فتردد الفتى قليلا ثم نظر الى كيان الرجل الواهى :

ـ نعم ، عندما تسترد كل صحتك ! . . .

ـ انى اشعر اليوم أنى قد شفيت ، ان صحتى تسمح لى أن أسافر ، اليوم بالذات ! . . . اسمع : ان لدى فى هذا الصندوق مبلغا من المال ادخرته يكفى نفقات السفر ! . . وسأخرج اليوم أبحث عن مشتر لهذه الكتب وهذه الامتعة . . . لست فى حاجة الى كتب بعد اليوم ، انما أنا فى حاجة الى . . . هواء . . . وفضاء . . . وصفاء !

وخشى « محسن » أن تنمو الفكرة فى رأس هذا المريض ، فيرتكب حماقة تسىء الى صحته . فلم يبد تحمسا لما قال . . . ثم أراد أن يثنيه ، عن عزمه فقال :

ـ أرى أنك تقسو فى الحكم على الغرب يا مسيو « ايفان » مهما يكن من أمر ، فان أوروبا قد وصلت بالعلم البشرى الى قمم لم يصل اليها . . .

فلفظ الرجل ضحكة سخرية ، وقال :

ـ من قال لك ذلك . . . أتعرف ماهو العلم أيها الفتى ؟ . . . ان العلم « علمان » : العلم « الظاهر » والعلم « الخفى » وان أوروبا حتى اليوم طفلة ، تعبث تحت أقدام ذلك « العلم الخفى » ، الذى كانت حضارات أفريقيا وآسيا قد وصلت به حقيقة الى قمم المعرفة البشرية . . . أما العلم « الظاهر » وحده فهو كل ميدانها ، الا أن الآلة المفكرة محدودة ، وأن كل وسائل العلم الظاهر هى أعضاؤنا وحواسنا الظاهرة ، وتلك ليس لها من الدقة ما يقتنص ، غير الظواهر التافهة ، من ظواهر الطبيعة والكون ـ مهما تعاونها الآلات والعدسات . كل هذا العلم الحديث الذى يبهرك ليس ، فى حقيقته غير « طريقة » و « أسلوب » ! . . . نعم ان الجديد حقا فى العلم

الاوروبى الحديث هو « اسلوب » التفكير المنتظم و «طرائق» البحث العقلى المرتقب ، أما أكثر من ذلك فلا ... وأما أن نسمى مجرد استكشاف بعض خواص الطبيعة بحواسنا ، وصولا الى قمم المعرفة البشرية ، فتلك هى السخرية الكبرى ! ... ان قمم المعرفة البشرية هى مجاهل ذلك « العلم الخفى » ، الذى لم يدخل قط عقل أوروبا ، لان وسائلها كما قلت لك لا تهيئها الا لفهم مظاهر الحياة السطحية ، ولا أقسو عليها أذا استعملت كلمة «السطحية» ، لانها هى الحقيقة ... ان عين العلم الاوروبى لا تقع دائما الا على سطح الاشياء ، ككل عين ! ... انها مدنية لا تدرك ولا تعترف الا بما يقع تحت لمسها وبصرها ومنطق عقلها ، ولا تقوم الا على عالم المحسوس ، وانى أصر على أن هذه المدنية الكبيرة ان هى الا « مدنية ناقصة » لانها لا تعرف الحياة الا فى « عالم واحد » ! ... أريد أن أهرب الى البلاد التى تعيش فى « عالمين » ، تلك البلاد التى ارتفعت فيها المعرفة البشرية الى قمم « العلمين »

وسكت الرجل قليلا ، ولمح « محسن » التعب على وجهه فقال له :

ـ لا تتكلم كثيرا ! ... أرجو منك ذلك ... حسبنا ما حصل فى المرة السابقة ! ...

ـ لن أتكلم ، كفى كلاما . ولكنى سأفعل ! ... الى العمل ! ...

ثم تحامل ونهض قليلا مستندا الى الحائط فأسرع اليه « محسن » :

ـ الى أين ؟

ـ أرتدى ثيابى ، لأخرج فأبيع هذه الكتب ، وأتهيأ للسفر

ـ ليس الآن ، ليس الآن ... انك متعب

ـ دعنى ، أيها الشاب ، سنذهب الى الشرق ، أريد أن

ارى جبل الزيتون ، وأن أشرب من ماء النيل وماء الفرات وماء زمزم وماء ...

ـ ونترك هذه البلاد ... وهذه الحضارة ... ونترك « بيتهوفن » ؟ ... آه يا مسيو « أيفـان » ! ... انك تستطيع أن تقول كل شيء عن الغرب فاسمع لك ، ولـكن « بيتهوفن » ها هو ذا نبى حقيقى ! ... ها هو ذا رسول للمحبة والسلام ، خليق أن يرفع مجد الغرب أبد الآبدين... وأن يطهر الانسانية وأن ينير القلوب ! ...

فالتفت الروسى الى محسن قائلا فى قوة :

بيتهـوفن ! ... بيتهـوفن ! ... نعـم بيتهـوفن » و « هاندل » ، و « موزار » ، و « هايدن » ، و « جان سباستيان باخ » ، و « ميكل آنج » ، و « رفايـــل » ، و « رمبرانت » ، و « باسـكال » ، و « ســان توماس » ، و «كوبرنيك» ، و «جاليليه» ، و «دانتى»... الخ الخ ... كل أولئك ان هم الا زهرات يانعات فى حديقة المسيحيـة الغناء ! ...

ثم وضع يده على كتف « محسن » المطرق الساهم :

ـ هلم الى المنبع !... الى المنبع ؟...الى هناك ... الى هناك ! ...

ثم ترك الفتى فى أطراقه ، وتحامل متكئا على الحائط ، يبحث عن حذائه وسترته ... ومرت فى رأس « محسن » خواطر ، وبدت له صور من الشرق اليوم ، فرفع رأسـه وقال لصاحبه الروسى :

ـ ألم تر الشرق قط من قبل ؟ ! ...

فأجاب الرجل ، وهو يضع حذاءه فى احدى قدميه :

لم أره قط الا فى أحلامى ... ولكنى لن أموت قبل أن أراه ! ...

فأطرق « محسن » مرة أخرى ، وهم أخيرا أن يرفع راسه ليقول لـ « ايفان » :

ــ مهلا ، مهلا أيها الصديق !...ان ذلك المنبع الذى تريد ان تراه ، وتلك الانـــهار التي تريد أن تشرب منهـا ، قد تسممت كلها ! ... ان «الفتاة الشقراء» يوم حقنت فخذها « بالمورفين » السام لم تترك أبويها سالمين ، لقد قضى الامر ، ولم يعد هناك نبع صاف ، فان الزهد قد ذهب كذلك من الشرق ! ... وان رجال الدين هناك يعرف بعضهم اليوم كذلك اقتناء السيارات ، وقبض المرتبات ، وتورد الوجنات من النعم والمتع ، وأن ثياب الشرق الجميلة النبيلة هي اليوم خليط عجيب من الثياب الاوروبية ، يثير منظره الضحك ، كما يثيره منظر قردة ، اختطفت ملابس سائحين من مختلفى الاجناس ، وصعدت بها فوق شجـرة ترتديـها ، وتقلد حركات أصحابها ! ... وأن التعليم العام للقراءة والكتابة ، وحق التصويت والبرلمان ، وكل هذه الافكار الاوروبية قد اصبحت فى الشرق اليوم مبادىء ثابتة ، يؤمن بها الشرقيون ايمانهم ــ بل أكثر من ايمانهم ــ بمبادىء الاديان ! ... وانه لمن السهل أن تقنع شرقيا اليوم بأن دينه فاسد ، ولـكن ليس من السهل أن تقنعه بأن « الصناعة الـكبرى » هى عجلة « ابليس » التى يقود بها الانسانية الى الدمار ... وأن التعليم العام لرموز الكتابة نوع من الهراء ، وانك قد تســتطيع اليـــوم أن تقتلع من رأس الشرقى عظمـــة « السماء » ! ... ولا تستطيع مطلقا أن تقتلع منه عظمـة « العلم الاوروبى الحديث » ، وانه لمن اليسير أن تسفه عند الشرقى الآن « رسالة » الانبياء ، ولا يمكن أن تسفه لديه « رسالة » القوة المادية الحديثة ! ... بل من العجيب أن هذه الافكار والمبادىء ، التى تعتبر فى الشرق اليوم ثابتـة ثبوت الآيات المنزلة ــ قد يناقشـــها الاوروبيون أنفسهم

وينقضونها ، وهى ما تزال حافظة عندنا كل قوتها ! ...
وإن المدفع قد ينطلق فى أوروبا ضد بعض هذه الافكار ،
ونرى ضوء لهبه ، ولكن الصوت لا يصل الى آذاننا لا لبعد
المسافة ، بل لان آذاننا لا تسمع ، وقلوبنا لا تعى ! ... لقد
كانت « الحقنة » شديدة الفعل والاثر . نعم ، ولا أحد
يدرى هل أوروبا حقنت الشرق بأفيون خالص أو بأفيون
ممزوج بسم ناقع ، سرى ــ وما زال يسرى ــ فى شرايينه
يقتل كل بذور المثل العليا الشرقية فى النفوس ، فشبان
الشرق اليوم ــ عندما أرادوا أن يتخذوا لهم مثالا للرجولة
والبطولة ــ لم يتجهوا شطر « غاندى » ولكنهم اتجهوا
بعيون ، كأنها منومة تنويم المغنطيس شطر «موسولينى» ،
ويوم أرادوا أن يجعلوا للتقشف والخشونة لباسا لم يضعوا
على أبدانهم العارية القوية رداء بسيطا من القطن ، يصنعونه
بأيديهم ــ لكنهم ارتدوا القمصان الاوربية ذات الالوان!...
اذن حتى أبطال الشرق قد ماتوا فى قلوب الشرقيين ! ...

نعم ، اليوم لايوجد شرق ! ... انما هى غابة على أشجارها
قردة ، تلبس زى الغرب ، على غير نظام ولا ترتيب ولا فهم
ولا ادراك

لم يجرؤ « محسن » أن يقول مثل هذا الكلام لصاحبه
الروسى ، فقد أدرك أن هذا الرجل ، الذى لم يستطع شىء
فى الغرب أن يشفى نفسه القلقة الحائرة ــ قد وضع كل
أمله فى الشرق ، وقد صنع الشرق فى رأسه صورا عظيمة
هى كل أمله الباقى ، وان كشف الحقيقة لعينه الآن أفظع
طعنة يقتل بها هذا المسكين ، فتركه فى خيالاته ، ورفع
الفتى رأسه أخيرا ليرى ماذا يصنع صاحبه ، فألفاه ملقى
على ظهر الصندوق ورأسه الى الحائط وفى احدى قدميه
الحذاء ، فأخذه روع لمرآه وأسرع اليه :

ــ ماذا بك ؟ ... مسيو « ايفان » ؟ ماذا بك !

فقال الرجل ، فى صوت كالحشرجة :

ـ فات الأوان !

ـ أى أوان ؟

ـ اذهب انت وحدك ... الى ... هناك ...

ـ أأستدعى لك الطبيب ، يا مسيو « ايفان » ؟ أأطلب لك ؟ ...

ـ لا ... لا تفعل شيئا ... انى ... أعرف نفسى ...

ومال رأسه ، وانطفأ النور الباقى من عينيه ، لكنه تحامل وقال فى صوت يكاد لا يسمع :

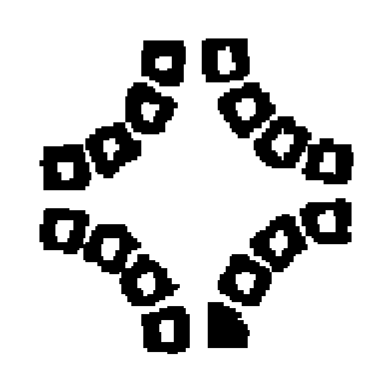
ـ اذهب أنت يا صديقى ... الى هناك ... الى النبع ... واحمل ذكراى وحدها معك ... وداعا ...



فهرس

صفحة

صفحة



كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج انيق وطباعة متقنة ، ثمن الكتاب الواحد ٨٠ مليما ـ ما عدا كتابى زينب ومع الله فى السماء وابتداء من كتاب « قال الرئيس » (العدد ٧١) ١٠٠ مليم ـ بخلاف مصاريف البريد المسجل ، وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية

١ ـ عبقرية محمد (نفدت)
تاليف عباس محمود العقاد

٢ ـ ماجلان قاهر البحار
تاليف ستيفان زفايج

٣ ـ هرون الرشيد (نفدت)
تاليف المرحوم الدكتور أحمد أمين

٤ ـ أبو الشهداء (نفدت)
تاليف عباس محمود العقاد

٥ ـ جنكيز خان
سفاح الشعوب (نفدت)
تأليف ف . بان

٦ ـ قلب النسر
تاليف اوكتاف اوبرى

٧ ـ السيد عمر مكرم
تاليف محمد فريد ابو حديد

٨ ـ غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر

٩ ـ زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

١٠ ـ الزعيم احمد عرابى (نفدت)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

١١ ـ بطلة كربلاء (نفدت)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

١٢ ـ اشعب أمير الطفيليين (نفدت)
تأليف توفيق الحكيم

١٣ ـ نفرتيتى ربةالجمالوالتاج(نفدت)
تاليف صوفى عبد الله

١٤ ـ حديث رمضان (نفدت)
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

١٥ ـ عبقرية خالد (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

١٦ ـ الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ.س. ارمسترونج

١٧ ـ كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

١٨ ـ الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

١٩ ـ لا تخف (نفدت)
تأليف ادوارد سبنسر كولز

٢٠ ـ مصطفى كامل
باعث النهضة الوطنية (نفدت)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

٢١ ـ القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

٢٢ ـ زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

٢٣ ـ مذكرات عرابى
جزء أول (نفدت)
تأليف الزعيم احمد عرابى

٢٤ ـ مذكرات عرابى
جزء ثان (نفدت)
تأليف الزعيم احمد عرابى

٢٥ ـ عبقرية عمر (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٢٦ ـ آمنة بنت وهب
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٢٧ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون
(نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٢٨ ـ عصا الحكيم فى الدنيا والآخرة
تأليف توفيق الحكيم

٢٩ ـ أبو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى

٣٠ ـ البؤساء (نفدت)
تأليف فيكتور هيجو

٣١ ـ علمتنى الحياة (نفدت)
لنخبة من علماء الشرق والغرب

٣٢ ـ فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى

٣٣ ـ مدرسة المغفلين (نفدت)
تأليف توفيق الحكيم

٣٤ ـ لا تقتل نفسك
تأليف بيترشتاينكرون

٣٥ ـ عصاميون من الشرق والغرب
(نفدت)
لنخبة من كبار الكتاب

٣٦ ـ الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة ـ الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران

٣٧ ـ ذو النورين عثمان بن عفان
(نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٣٨ ـ محمد الثائر الاعظم
تأليف فتحى رضوان

٣٩ ـ عش مائة عام
تأليف جايلورد هاوزر

٤٠ ـ الحرية الحمراء
تأليف حبيب جاماتى

٤١ ـ اهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم

٤٢ ـ الله (نفدت)
تأليف عباس محمود العقاد

٤٣ ـ عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز

٤٤ ـ علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان

٤٥ ـ نساء النبى (نفدت)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٤٦ ـ ثائرون
تأليف محمود تيمور

٤٧ ـ زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم

٤٨ ـ هذا مذهبى
بأقلام نخبة من الشرق والغرب

٤٩ ـ غادة النيل
تأليف اميل لودفيج

٥٠ ـ مطلع النور
تأليف عباس محمود العقاد

٥١ ـ يوميات نائب فى الارياف
تأليف توفيق الحكيم

٥٢ ـ طريق السعادة
تأليف فيكتور بوشيه

٥٣ ـ الف ليلة وليلة (نفدت)
(الجزء الاول)

٥٤ ـ عبقرية الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

٥٥ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الثانى)

٥٦ ـ مدرسة الشيطان
تأليف توفيق الحكيم

٥٧ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الثالث)

٥٨ ـ معاوية بن أبى سفيان
تأليف عباس محمود العقاد

٥٩ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء الرابع)

٦٠ ـ اعرف نفسك
تأليف ادوارد سبنسر كولز

٦١ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الخامس)

٦٢ ـ مع الله .. فى السماء
تأليف الدكتور أحمد زكى

٦٣ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء السادس)

٦٤ قصة الثورة كاملة (نفدت)
تأليف أنور السادات

٦٥ ـ جحا الضاحك المضحك
تأليف عباس محمود العقاد

٦٦ ـ بنات النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٦٧ ـ عبقرية الامام على
تأليف عباس محمود العقاد

٦٨ ـ شاعرة الطليعة عائشة تيمور
تأليف الآنسة مى

٦٩ ـ الصديقة بنت الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

٧٠ ـ بطل الكفاح الشهيد محمد فريد
تأليف عبد الرحمن الرافعى

٧١ ـ قال الرئيس
للرئيس جمال عبد الناصر

٧٢ ـ بناة النهضة العربية
تأليف جرجى زيدان

٧٣ ـ محمد الرسول البشر (نفدت)
تأليف توفيق الحكيم

٧٤ ـ القصر المسحور
تأليف طه حسين ـ توفيق الحكيم

٧٥ ـ قصة الثورة كاملة (نفدت)
تأليف أنور السادات

٧٦ ـ أسرار الثورة المصرية
تأليف أنور السادات

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب (« المبتديان ») بالقاهرة وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكتبات الشهيرة وأكشاك الصحف ، ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الاعداد ترسل بالطائرة)

العراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٢

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البرازيل : Dr. Michel H. Thome.
Pateo Do Colegio N° 3.
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL.

هذا الكتاب

عصفور من الشرق كتاب أدبى فلسفى وضع فى قالب قصة غرامية طريفة ، ولكنه تناول كثيرا من الآراء التى كانت — حين ظهر هذا الكتاب منذ عشرين عاما — تتضارب ولاتنفك تتصارع وتتصادم فى العالم حتى اليوم . وهى أول قصة مصرية تناولت الافكار والاتجاهات العالمية

انه كتاب يصور العالم بشرقه وغربه، ويأتى على ذكر الافكار والآراء التى كانت جديدة فى ذلك الوقت ، وكما كانت تتصادم فيها الاتجاهات المختلفة والعقائد والتقاليد

هذه الآراء وتلك الاتجاهات لا تزال فى صراع الى اليوم ، ولا تزال موضع أخذ ورد ، ولا تنفك تستحوذ على عقول الكثيرين من الناس عامة والمفكرين خاصة

وقد استطاع الاستاذ توفيق الحكيم أن يعبر عن هذه الآراء والاتجاهات تعبيرا صادقا أمينا بأسلوبه الجميل وحواره الممتع الاخاذ